سلسلة شروح فضيلة الشيخ ١

شرح ثلاثة الأصول وأدلتها

الشرح غير مكتمل

تصنيف الإمام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

لفضيلة الشيخ العلامة

عبد الله بن محمد الغنيمان

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

عبد الله الغنيمان

الشيخ لم يراجع التفريغ

شرح

ثلاثة الأصول وأدلتها

سلسلة شروح فضيلة الشيخ ①

شرح

ثلاثة الأصول وأدلتها

تصنيف الإمام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

لفضيلة الشيخ العلامة

عبد الله بن محمد الغنيمان

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

النسخة الأولى

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ **يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ**:

الأُولَى: العِلْمُ؛ وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلَامِ بِالأَدِلَّةِ.

الثَّانِيَةُ: العَمَلُ بِهِ.

الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العَصْر].

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: (لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِه السُّورَة لَكَفَتْهُمْ).

وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (بَابٌ: **العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ، وَالدَّلِيلُ**: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [مُحَمَّد:١٩]؛ فَبَدَأَ بِـ (العِلْمِ) قَبْلَ (القَوْلِ وَالعَمَلِ).

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمَّد وعلى آله وصحابته والتَّابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

هذه الرِّسالة كُتِبت لعامَّة المسلمين؛ لأنَّها متعيِّنة التَّعلُّم؛ تتعيَّن على كلِّ فرد أنْ يعرفها.

وهذا الشَّيء معلوم في الدِّين، ما هو أَمْر مستحدَث.

ولكن لكون النَّاس قصَّروا في هذا الجانب اختصرها الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واقتصر على الأمور المهمَّة الَّتي لا يجوز للإنسان أنْ يجهلها؛ باختصار شديد واقتصار على بعض الأدلَّة الواضحة الجليَّة، والَّتي يمكن أنَّ الإنسان يعرفها (كلُّ واحد).

وتَعَلُّمها متعيِّن.

والتَّعلُّم ليس مجرَّد قراءة؛ مثل هذه يجب أنْ تُحفَظ وتُفهَم، يُفهَم الكلام المراد.

وذلك: أنَّ هذا سيُسأل عنه الإنسان؛ يُسأل عنه لأنَّه خُلِق لأجل ذلك.

وإنْ كانت العبادة الَّتي خَلَق الله جَلَّ وَعَلَا لها خَلْقه: كلُّ ما جاء به الرَّسول مِن الواجبات والمُحكمات ولكن هذا هو الخلاصة (خلاصة هذا الشَّيء).

وهي كُتِبت للعامَّة ولم تُكتبَ للعلماء؛ لأنَّ العلماء يجب عليهم غير ما يجب على العامَّة؛ بل يجب عليهم أكثر مِن ذلك.

ثمَّ بدأ بـ (البسملة)؛ اقتداءً بـ (كتاب الله جَلَّ وَعَلَا)؛ لأنَّ أوَّل ما في المصحف: (بسم الله الرَّحمن الرَّحيم)؛ يُفتتَح بهذا.

واختلف العلماء: هل (البسملة) آية مستقلَّة أَو أنَّها آية مِن كلِّ سورة، أو أنَّها آية مِن سورة الفاتحة فقط، وبقيَّة السُّوَر: جُعِلت للفصل بين السُّورة والأخرى، وليست آية منها؟

يعني ثلاثة أقوال للعلماء.

والرَّاجح: أنَّه آيةٌ مِن سورة الفاتحة؛ ولهذا يتعيَّن على المُصلِّي أنْ يقرأها؛ يقرأ (بسم الله الرَّحمن

الرَّحيم) لأنَّها آيةٌ منها؛ هذا هو الرَّاجح.

وسورة الفاتحة سبع آيات؛ كما نَصَّ الله جَلَّ وَعَلَا عليها، والرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوجب قراءتها في كلِّ صلاة.

وقد اتَّفقوا على أنَّها جزء آية مِن سورة النَّمل: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل]؛ هذا شيء لا خلاف فيه.

وإنَّما الخلاف: هل هي آيةٌ مِن كلِّ سورة؟

هذا قول.

القول الثَّاني: أنَّها ليست آية؛ وإنَّما هي للفصل بين السُّورة والأخرى.

وأمَّا أنَّها آيةٌ مِن سورة الفاتحة: فهو الرَّاجح.

ثمَّ كذلك الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يبدأ بها في كُتُبه؛ إذا كَتَب كتابًا كَتَب قبله: (بسم الله الرَّحمن الرَّحيم)؛ كما رُوِيت كُتُبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الأسلوب.

وفي الحديث - الَّذي رواه عدد مِن رواة العلم في الحديث -: أنَّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ بِذِكْرِ الله فَهُوَ أَبْتَر**».

وفي رواية: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بـ (بِسْمِ الله)**».

وفي رواية: «**بـ (الحَمْد لله)**».

وفي رواية: «**بِـ (ذِكْر الله)**».

وجاء: «**فَهُوَ أَبْتَر**»، «**فَهُوَ أَقْطَع**»، «**فَهُوَ أَجْزَم**»؛ روايات.

والحديث في مجموعه: حديث حسن.

فيتعيَّن جدًّا على الكاتب الَّذي يكتب كُتُب العلم أو غيرها: أنْ يبدأ بـ (ذِكْر الله) أوَّلًا (بسم الله الرَّحمن الرَّحيم).

و(الباء): للاستعانة؛ يعني أنَّه يستعين بهذا الاسم الكريم.

وكلُّ أَمْرٍ مهم إنْ لم يكن الرَّبُّ جَلَّوَعَلَا معينًا عليه (مهم وغير مهم) فلن ينجح، ولن يتحصَّل على طائل.

ولهذا قال: (بِسْم الله): يعني أبدأ مستعينًا بـ(اسم الله)، أبدأ بهذا الأمر مستعينًا بـ(اسم الله).

و(اسم الله): هو وَصْفه، وهو الَّذي سمَّى به نفسه جَلَّوَعَلَا.

واسمه مبارك؛ إذا ذُكِر على شيءٍ فإنَّه يتبارك ويزيد.

وهو الَّذي إذا استعان به المستعين أعانه الله جَلَّوَعَلَا.

و(الرَّحمن الرَّحيم): اسمان مِن أسماء الله جَلَّوَعَلَا؛ دالَّان على (الرَّحمة) الَّتي هي الصِّفة، وأحدهما أبلغ مِن الآخر؛ لأنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى – كما هو معلومٌ في لغة العرب –؛ يعني زيادة الحروف دليلٌ على كثرة المعاني.

و(الرَّحمن) أكثر مِن (الرَّحيم) حروفًا.

ولهذا؛ جاء عن ابن عبَّاس وغيره: أنَّهما اسمان رقيقان، وأحدهما أرقُّ مِن الآخر.

ومعنى (رقيقان): يعني يدلَّان على الرِّقَّة والرَّحمة.

وأحدهما أدلُّ مِن الآخر؛ الَّذي هو (الرَّحمن).

ولهذا؛ جاء (رحمن الدُّنيا والآخرة): يعني أنَّه جَلَّوَعَلَا رحمته وَسِعت كلَّ شيء؛ فهي كثيرةٌ جدًّا.

اكتفى بهذا في (ذِكْر الله) بـ(البسملة)، وهذا يكفي.

وكثيرٌ مِن العلماء يجمع بينها وبين (الحمد لله)؛ لأنَّ الرِّواية جاءت بـ(الحمد لله).

ولكن إذا ذُكِر الاسم يكفي.

لهذا؛ البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه» اكتفى بذلك – بـ(بسم الله) –، ثمَّ ذكر الحديث «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّات**».

وقوله: (اعْلَمْ): أَمْرٌ لـ(السَّامع)؛ وهذا لأنَّ هذا أَمْرٌ مهم.

وعند الأمور المهمَّة يُنبَّه السَّامع بقول: (اعْلَمْ)؛ حتَّى تجتمع هِمَّته ويستعدُّ لذلك.

و(العلم) الَّذي يُقصَد به: هو إدراك المعلومات وتَيَقُّنها على الوجه المطلوب على وجه المطابقة الَّتي أُريدت.

وقوله: (رَحِمَكَ اللهُ): هذا دعاء للسَّامع الَّذي يُطلَب منه معرفة ذلك.

و(الدُّعاء) مطلوبٌ مِن المسلم لأخيه المسلم.

و(رحمة الله) واسعة، ومَن رَحِمه الله جَلَّوَعَلَا وقاه شرّ الجهل وشرّ الذُّنوب، وإلَّا لا أحد يخلو مِن جهلٍ ومِن ذنوب إلَّا مَن علَّمهم الله جَلَّوَعَلَا مِن أنبيائه وأصفيائه وأوليائه.

وأصل (الشَّرِّ) يأتي مِن (الجهل) ثمَّ (الذُّنوب)؛ لأنَّ (الجهل) هو الَّذي يبعث على (الذُّنوب).

ولهذا يقول الصَّحابة رضوان الله عليهم في قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النساء:١٧]: يقولون: كلُّ مَن عَمِل سيِّئة فهو جاهل؛ لأنَّ العاقل لو عرف مَن عصى لا يمكن أنْ يُقدِم على المعصية.

لهذا؛ قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] الَّذين يعلمون بالله جَلَّوَعَلَا.

لهذا قال: (رَحِمَكَ اللهُ)؛ رَحِمك الله بألَّا تقع في الجهل وفي آثاره مِن الذُّنوب، ومَن رَحِمه الله جَلَّوَعَلَا أدركته السَّعادة؛ بحيث يعمل لأسبابها في الدُّنيا ثمَّ يكون على عمل يُرضي ربَّه جَلَّوَعَلَا فيتوفَّاه عليه؛ فيكون مرحومًا.

هنا يقول: (أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا): جاء بـ(الضَّمير) الَّذي يدلُّ على الجمع، وهنا (الضَّمير) يعني المسلمين، (علينا أيُّها المسلمون) عمومًا: يعني كلِّ مسلمٍ ومسلمة.

(يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ): **وهذا الوجوب - في الواقع - ينقسم إلى قسمين:**

- قِسمٌ عيني على كلِّ فردٍ مِن أفراد الأُمَّة (ذكرًا وأنثى) إذا بَلَغ التَّكليف (كُلِّف)؛ وَجَب عليه.

- الثَّاني: يجب على عموم الأُمَّة (وليس على أفرادها)، (على العموم)؛ وهو الَّذي يُسمَّى (فرض الكفاية).

هذه المسائل الأربع تنقسم إلى:

- فرض عين.

- وفرض كفاية.

المسائل الأربع الَّتي سيذكرها:

- **منها**: ما هو فرض عين؛ مُتعيِّن على كلِّ أحد.

- **ومنها**: ما هو فرض كفاية؛ إذا قام به جماعةٌ كافية مِن الأُمَّة سقط الإثم عن الجميع وإلَّا أَثِمت الأُمَّة كلُّها.

لأنَّه لا يجوز أنْ يُجهَل شيءٌ ممَّا جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعموم الأُمَّة؛ هذا لا يجوز؛ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلَّغ، جاء بالبلاغ المبين، وقد حُفِظ ذلك.

ثمَّ قال في تفصيل أربع المسائل: (**الأُولَى: العِلْمُ**).

كما قلنا: (**العلم**) **ينقسم إلى قسمين:**

- عِلمٌ فرض عين.

- وعِلم فرض كفاية.

و(**فرض العين**): معناه (على الأعيان)؛ كلُّ إنسانٍ بعينه يجب عليه العلم (أنْ يعلم).

وقد جاء في الحديث عن الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**».

و(المسلم) يدخل فيه النِّساء والذُّكور.

ولهذا؛ اللَّفظ الَّذي فيه «**وَمُسْلِمة**» ضعيف، ليس صحيحًا؛ لأنَّ («**مُسْلِمٍ**») يكفي.

«**العِلْم فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**».

هذا الفرض الَّذي يجب علينا تعلُّمه ويكون على الأعيان: مِثل:

- معرفة الله جَلَّ وَعَلَا؛ بأنْ يعرف ربَّه معرفةً لا يكون شاكًّا فيها؛ وهذا يجب أنْ يكون بـ(الدَّليل) - كما سيأتي -؛ لأنَّه إذا لم يكن بـ(الدَّليل) يشك.

- ومعرفة الدِّين.

- ومعرفة الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كيف يكون (معرفة الدِّين) فرض عين؟

نقول: نعم؛ يجب أنْ يعرف التَّوحيد (عبادة الله): أنَّ العبادة يجب أنْ تكون خالصة لله؛ مثل (الصَّلاة، والصَّوم، والحَج، والزَّكاة، والصَّدقة، والرُّكوع، والسُّجود، والدُّعاء، والنَّذر، والذَّبح، والخوف، والخشية، والإنابة) وجميع أنواع العبادة.

فكلُّ العبادة يجب أنْ يعرف أنَّها حقٌّ لله جَلَّوَعَلَا وليس لأحدٍ مِن الخَلْق فيها شيء؛ هذا فرضٌ على العبد أنْ يعرف ذلك.

وكذلك يجب عليه أنْ يعرف (الصَّلاة) الَّتي فرضها الله عليه، ويعرف الَّذي يلزم لها ويُشترَط لها؛ فيعرف – مثلًا – كيف يتوضَّأ، وكيف يتيمَّم إذا فَقَد الماء، وكيف يصلِّي إذا كان صحيحًا، وكيف يصلِّي إذا كان مريضًا.

وكذلك إذا كان عنده مال يجب أنْ يعرف (كيف يُزكِّي المال)، ما مقدار الزَّكاة، ومَن يعطيها؛ يجب أنْ يعرف هذا، أمَّا إذا لم يكن عنده مال: فليس واجبًا عليه، لا يجب عليه ذلك؛ وإنَّما يجب على مَن عنده المال.

وكذلك يجب أنْ يعرف أنَّ الله أوجب عليه (صوم رمضان)، ويعرف معنى الصَّوم وما هو الصَّوم: هو الإمساك مِن طلوع الفجر عن المفطِّرات (الَّتي تُفطِّر الصَّائم) إلى غروب الشَّمس.

وكذلك يجب أنْ يعرف كيف يبيع ويشتري في الشَّيء الَّذي يلزمه، يعني أنَّه لا يقع في الرِّبا، لا يقع في المحرَّمات؛ فإنْ لم يعرف ذلك فهو آثِم.

كذلك يجب عليه أنْ يعلم أنَّ الزِّنى حرام، وأنَّ الرِّبا حرام، وأنَّ الفواحش ما ظَهَر منها وما بطن قد حرَّمها الله جَلَّوَعَلَا، يعتقد ذلك؛ فهذه مِن الأمور الفرضيَّة العينيَّة الَّتي تجب على الإنسان.

هذا الَّذي يُسمَّى في هذه المسألة (فرض عين) (يتعيَّن).

وهو – كما عرفنا – يختلف باختلاف النَّاس.

فالَّذي يكون عنده مال – مثلًا – يجب عليه أنْ يعرف كيف مقدار الزَّكاة، ومَن يعطيها، ومخارجها (لمَن يُخرِجها).

وكذلك الَّذي يتعاطى البيع والشِّراء يجب عليه أنْ يعرف أحكام البيع والشِّراء، والَّذي لا يتعاطى

البيع والشِّراء لا يجب عليه ذلك.

كذلك يجب عليه أنْ يعرف أحكام النِّكاح إذا كان يريد أنْ يتزوَّج، والطَّلاق، والرَّجعة، والشَّيء الَّذي يلزم لهذا؛ لأنَّ هذه أمور الإنسان مكلَّفٌ بها؛ لا يجوز أنْ يجهلها.

أمَّا الفرض الكفائي في هذه المسألة: فهو واسعٌ جدًّا؛ فإنَّه يجب على الأُمَّة بعمومها ألَّا يفوتها شيءٌ ممَّا جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن جميع العلوم الَّتي تتعلَّق بـ(الدِّين)؛ مِن (فقه، حديث، فرائض، ولغة، وغير ذلك).

الشَّيء الواجب مثل (المنسوخات، والمُحكمات، والعمومات والخصوصات، وغيرها): فهذه تلزم العلماء الَّذين عندهم مقدرة على ذلك، ولا تلزم عوام المسلمين.

الَّذين عندهم المقدرة يلزمهم هذا.

ولهذا صار (طلب العلم) أفضل مِن (الصَّلاة للتَّطوُّع)، ومِن (الصَّدقة للتَّطوُّع)، ومِن سائر الأعمال؛ لأنَّ فيه التَّبليغ وحِفظ الدِّين، فيه حِفظ ما جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فـ(التَّعلُّم والتَّعليم) مِن أفضل الأعمال إذا صَلحت النِّيَّة، وإلَّا العلم إذا فَقَد النِّيَّة الصَّالحة يكون وسيلة عذاب – نسأل الله العافية –، وقد يُعذَّب به الإنسان قبل المُشرِك.

العالِم يُعذَّب قبل المُشرِك؛ العالِم الَّذي أهمل العمل، وأصبح لا يعمل بعِلمه: يكون عِلمه زيادة حُجَّة عليه، وزيادة عذاب – نسأل الله العافية –.

ولهذا ثبت في «صحيح مسلم» أنَّ أوَّل مَن تُسعَّر به جهنَّم – نسأل الله العافية – ثلاثة؛ أحدهم: المتعلِّم، أحد الثَّلاثة: المتعلِّم الَّذي تَعَلَّم ليُقال: هو عالِم، ليُقال: هو مناضل، وهو يستطيع أنْ يرد، ويستطيع أنْ يتكلَّم، ويطلب أنْ يُثنَى عليه ويُمدَح ويُشار إليه (العالِم الفلاني)؛ لأنَّه في الواقع يعبد نفسه.

فالمقصود أنَّ (العِلم الواجب) على هذا ينقسم إلى قسمين:

– قِسمٌ يجب على كلِّ فرد بعينه؛ وهو الشَّيء يلزمه في أَمْر دينه الَّذي لا بدَّ منه، يجب أنْ يتعلَّمه، ولا يجوز أنْ يأخذ ذلك عمَّا يشاهده مِن النَّاس؛ فإنَّ هذا يُسمَّى التَّقليد، والتَّقليد في مِثل هذه الأمور لا تنفع؛ لا بدَّ أنْ يعرف.

فلا بدَّ أنْ يعرف أنَّه تجب عليه الصَّلوات الخمس، ويعرف ما يُبطلها، ويعرف واجباتها وشروطها وأركانها، إلى آخره.

وسيأتي ذِكْر ذلك؛ لأنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا ذكر هذه المسائل أراد أنْ يذكر الشَّيء الواجب المتعيِّن الَّذي لا بدَّ منه؛ فسيذكر ذلك.

هذه هي **المسألة الأُولى**: (العِلْمُ).

الثَّانية: (العَمَلُ)؛ لأنَّ (العِلم) وسيلةٌ لـ(العمل)، و(العمل) هو ثمرته؛ هو ثمرة (العِلم).

فـ(العِلم) مِثل الشَّجرة، و(العمل) مِثل الثَّمرة.

(الثَّمرة) هي المقصود.

و(الشَّجرة) ليست إلَّا وسيلة وسبب لذلك.

فيجب أنْ يعمل بـ(عبادة الله جَلَّوَعَلَا): أنْ يعبد الله وحده؛ يعلم ثمَّ يعبد ربَّه جَلَّوَعَلَا؛ فيجعل (التَّوحيد) لله جَلَّوَعَلَا، وفي (الصَّلاة)، وفي (الدُّعاء)، وفي (النَّذر)، وفي (الصَّوم)، وفي (الصَّدقة) وغيرها؛ كلُّ الأعمال يجب أنْ يجعلها لله جَلَّوَعَلَا في هذا.

وكذلك سائر ما يعلمه مِن الشَّرع يعمل به؛ وهذا يختلف باختلاف النَّاس؛ فمِن النَّاس مَن يجب عليه ما لا يجب على الآخر في هذه المسألة (مسألة العِلم).

ولهذا؛ نقول أيضًا: إنَّ العمل يأتي فرض عين وفرض كفاية.

فهناك مِن النَّاس مَن لا يستطيع أنْ يجاهد، ولا يستطيع أنْ يعمل ما يعمله غيره؛ فالله لا يكلِّف نفسًا إلَّا وسعها، يكون تكليفه على حسب وسعه وطاقته.

فمثلًا: الَّذي يستطيع العمل ليس كالَّذي لا يستطيعه.

فيجب على (مَن استطاع) أكثر ممَّا يجب على (الَّذي لا يستطيع).

ولكن العمل يشمل الشَّرع كله؛ وهذا هو الَّذي يكون فرض كفاية، يكون كثيرٌ منه فرض كفاية.

أمَّا الشَّيء الَّذي يتعيَّن على الإنسان بعينه: فهو فرض عين.

المسألة الثَّالثة: (الدَّعْوَةُ) إلى العِلم الَّذي تعلَّمه، أنْ يدعو إليه.

و(الدَّعوة) هي سبيل الرُّسل، والله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

فقوله: ﴿قُلْ﴾ [يوسف:١٠٨]: أَمْر مِن الله جَلَّوَعَلَا يأمر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أنْ يقول لمَن يُبلِّغهم ذلك ولمَن يصل إليهم هذا الكلام: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف:١٠٨]: يعني الدَّعوة الَّتي جئت بها هي الَّتي أحيا مِن أجلها وأموت عليها، وليس لي عمل غير ذلك؛ فعليها حياتي وعليها مماتي، فهي سبيلي في حياتي، سبيلي الَّذي أسلكه؛ فليس لي مَسلك وطريق غيرُها.

ما جاء صَلَوَاتُ ٱللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لنا لعمارة القصور، ولا لإجراء الأنهار، ولا لغرس الأشجار ولا لغير ذلك؛ وإنَّما يفعل مِن ذلك الشَّيء الَّذي لا بدَّ منه؛ فالشَّيء الَّذي لا بدَّ منه يفعله؛ وإنْ كان ليس في هذا الأمر بـ(تَرْك الدُّنيا) حُسنًا: ليس كذلك، ولكن لا يجوز أنْ تكون الدُّنيا على حساب ذلك؛ الدُّنيا تكون بعد هذا.

إذا كان الإنسان كمَّل ذلك فلا بأس أنْ يأخذ الدُّنيا ولكن يجب ألَّا ينسى حقّ الله فيها، ويجب ألَّا تُشغله عمَّا هو فرضٌ عليه.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [يوسف:١٠٨]: فـ﴿أَدْعُوٓاْ﴾ هنا بيان لـ﴿سَبِيلِيٓ﴾؛ فهو بيَّنها.

فعندما قال: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ يعني أدعو إلى الله، ثمَّ قال: ﴿إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾؛ فالدُّعاء ليس مطلقًا؛ بل إلى الله، حتَّى تكون الدَّعوة بإخلاص.

يكون الدُّعاء إلى الله جَلَّوَعَلَا بحقٍّ وبصِدْق، وليست دعواه ليكون مِن أتباعه ويذكره أنَّه فلان الدَّاعية الَّذي استفاد منه فلان واستفاد كذا وكذا إلى آخره.

إذا كان هذا هو المقصود فبئس الدَّعوة؛ لأنَّه يدعو إلى نفسه؛ كما قال الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «رسالة التَّوحيد» على هذه الآية؛ يقول: إنَّ قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [يوسف:١٠٨] تنبيهٌ على (الإخلاص)؛ لأنَّ كثيرًا مِن النَّاس وإنْ دعا في الظَّاهر إلى الله فهو في الحقيقة يدعو إلى نفسه.

﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨]: و(البصيرة) هي العِلم؛ الَّذي هو فرضٌ علينا.

(البصيرة) هي (العلم)، يعني يدعو على عِلمٍ مِن الله جَلَّوَعَلَا: أنَّ هذه الدَّعوة تجب، وأنَّ الدَّعوة بـ (كذا) وإلى (كذا).

وقوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف:١٠٨]: يعني (أنا على بصيرة ومَن اتَّبعني)، أو (أنا أدعو على بصيرةٍ ومَن اتَّبعني)، وكلُّه جائز، هذا وهذا جائز؛ والآية تدلُّ على هذا وهذا.

وكذلك غيرها مِن الآيات كثير يدلُّ على ذلك (على وجوب الدُّعاء)، **ولكن (الدَّعوة إلى الله جَلَّوَعَلَا) تنقسم إلى قسمين.**

دعوةٌ مِن الجهاد.

و(الجهاد) مراتب:

- **منه**: ما هو فرض عيني.
- **ومنه**: ما هو فرض كفائي.

ولهذا؛ جاء في الحديث عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّث نَفْسَهُ بِـ (الغَزْو) مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاق**»؛ وهذا لكلِّ أحد.

ومعنى «**يُحَدِّث نَفْسَهُ**»: **يعني** يعزم، ينوي أنَّ سيغزو في سبيل الله.

و(الجهاد) مراتب: مراتب الجهاد مرتبتان.

بل (الجهاد) يكون:

- جهاد للنَّفس.
- وجهاد للشَّيطان.
- وجهادٌ للكفَّار والمنافقين.

أمَّا (جهاد النَّفس) فهو ثلاث مراتب:

- جهاد النَّفس في عمل الطَّاعات.
- وجهادها في الصَّبر على المعاصي.

- وجهادها على المكاره مِن هذا وهذا.

ثمَّ (جهاد الشَّيطان):

* يكون جهادٌ له فيما يُلقيه مِن الشُّبهات والشُّكوك؛ وهذا يكون بـ (العِلم والتَّعلُّم).

* وجهادٌ له فيما يلقيه مِن الشَّهوات في النُّفوس الَّتي تميل إليها، والأمراض (أمراض القلوب).

لأنَّ (المرض) ينقسم إلى قسمين: مرض شهوة، ومرض شُبهة.

ولهذا؛ لمَّا ذكر الله جَلَّوَعَلَا النِّساء والأمر بأنْ يحتجبن وألَّا يخفضن مِن أصواتهن قال: ﴿**فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ**﴾ [الأحزاب:٣٢]: الَّذي في قلبه مرض الشَّهوة.

فإذا سمع المرأة بصوتها الرَّخيم الرَّقيق تثور شهوته؛ لأنَّه عنده مرض الشَّهوة؛ فأُمِرت بأنْ تواجه الرَّجل بصوتٍ غير هذا.

وهذا هو جهاده؛ مِن هذين الشَّيئين.

أمَّا (جهاد الكفَّار): فيكون بـ (النَّفْس)، وبـ (المال)، وبـ (اللِّسان)، وكذلك بـ (القلب).

إذن (جهاد الكفَّار) يكون مراتبه: أربع:

- بـ (القلب)، وكيف يكون (الجهاد بالقلب)؟ يكون كراهتهم وبُغضهم ومعاداتهم، والعزم على إظهار ذلك والعمل عليه.

- ويكون بـ (المال)؛ يجاهد بماله.

- ويكون بيده (بنفسه).

- ويكون بـ (لسانه).

و(جهاد الكفَّار والمنافقين) كلُّه بهذا.

والله جَلَّوَعَلَا: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ**﴾ [التحريم:٩].

جاء هذا في آيتين مِن القرآن.

ولكن (جهاد الكفَّار) بـ (اليد) أخص.

و(جهاد المنافقين) بـ(اللِّسان) أخص؛ يحتاجون إلى بيان أحوالهم وأوصافهم وما هُم فيه.

فهذا كلُّه مِن العمل الَّذي يجب على النَّاس عمومًا وخصوصًا، يعني منه: ما هو خاص، يعني منه: ما هو فرض عين، ومنه: ما هو فرض كفاية.

و(جهاد الكفَّار) بـ(النَّفس): ذكر العلماء أنَّه يتعيَّن في ثلاث مواطن، يُصبح فرض عين في ثلاث مواطن:

الموطن الأوَّل: إذا حَضَرَ الصَّفَّ، إذا حَضَر القتال.

كلُّ مسلمٍ يحضر القتال بين المسلمين والكفَّار يجب عليه أنْ يقاتل، وإلَّا يصبح مِن الَّذين تولَّوا يوم الزَّحف، وهو مُتوعَّدٌ بـ(النَّار) – نسأل الله العافية.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾[الأنفال:١٦]: هذا استثناء، لكنَّه متوعَّد في جهنَّم، يُلقيه الله جَلَّوَعَلَا جهنَّم؛ وهذا يدلُّ على أنَّه فرض عين.

الموطن الثَّاني: إذا دَاهَم العدو البلد الَّذي فيه المسلم، إذا دَاهَم العدو البلد الَّذي أنت فيه وَجَب عليك أنْ تجاهد، ولا يجوز أنْ تتخلَّف؛ فهو فرض عين على كلِّ مَن كان فيها.

الموطن الثَّالث: إذا عيَّنه الإمام (إمام المسلمين) وقال له: (أنت تجاهِد، أنت تخرج للجهاد)؛ فتعيَّن عليه، ووجب عليه أنْ يجاهد.

أمَّا ما عدا ذلك: فهو فرض كفاية؛ إذا قام به مَن يكفي وإلَّا سقط.

والجهاد يجب ألَّا يُعطَّل؛ لأنَّ الله أَمَر به؛ فيجب أنْ يُقام، ويجاهَد.

ولهذا؛ جاء في الحديث: «**مَا دَام العَدوُّ يُقاتَل فَالإِسْلَام فِيه عِزّ**»، أو «**عَزِيز**».

وجاء أنَّ التَّوبة تُقبَل ما لم تطلع الشَّمس مِن مغربها.

وعند طلوع الشَّمس مِن مغربها يتعطَّل الجهاد في سبيل الله؛ لأنَّه لا ينفع نفس عمل تزيد به.

و(الجهاد) مِن أفضل الأعمال؛ كما أخبر الله جَلَّوَعَلَا؛ فإنَّه ثبت في الحديث «الصَّحيح»: أنَّ الصَّحابة رضوان الله عليهم تذاكروا أيّ الأعمال أفضل وأحب إلى الله؛ فأنزل الله جَلَّوَعَلَا سورة الصَّف: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصف].

فـ(الإيمان بالله) قبل (الجهاد)؛ لا بدَّ منه.

ولكن (الجهاد) هو ذروة سنام الإسلام.

يتبيَّن لنا أنَّ (الجهاد):

* **منه**: ما هو فرض كفاية.

* **ومنه**: ما هو فرض عين.

فـ(فرض العين): كلُّ إنسان يجاهد نفسه ويجاهد الشَّيطان؛ هذا فرض عين على الإنسان.

يجاهد نفسه: في فِعْل الواجبات (أنْ يفعلها)، الواجبات الَّتي أوجبها الله عليه.

ويجاهدها في كفِّها ومَنْعها عن المُحرَّمات الَّتي حرَّمها الله جَلَّ وَعَلَا عليه.

هذا جهاد، والجهاد لا بدَّ منه؛ لأنَّ هذه الحياة كلها حياة جهاد وكفاح، أمَّا أنَّ الإنسان يجلس مسالِمًا: فهذا لا يمكن، لا يمكن أنْ ينجح، يخسر؛ لأنَّه تستولي عليه نفسه ويستولي عليه الشَّيطان فيَهلَك إنْ لم يُجاهد نفسه والشَّيطان.

وكذلك جهاد الشَّيطان فرض عين؛ يجب أنْ يجاهده.

والشَّيطان يرانا مِن حيث لا نراه؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا.

وهو يجري مِن ابن آدم مجرى الدَّم؛ يخرج في جسده ويشمُّه ويلقي خرطومه على قلبه، يشمُّه ويرى ماذا يريد وماذا يحب؛ فيُزيِّن له ذلك.

والله جَلَّ وَعَلَا كرَّر الأمر بمجاهدته في آياتٍ كثيرة، وأمرنا أنْ نتَّخذه عدوًّا، والعدو يُجاهَد.

هذا الَّذي هو فرض عين.

أمَّا فرض الكفاية: فهو معلوم؛ أنَّ مجاهدة العدو باليد والمال.

وكذلك جهاد القلب على كلِّ واحد، لا يسقط؛ فجهاد القلب على كلِّ واحد؛ يجب أنْ يجاهِد بقلبه؛

ولا يجوز أنْ يخلو القلب مِن مجاهدة أعداء الله.

هذه مسألة (الدَّعوة إلى الله): أنْ يدعو إلى الله؛ فيكون (الجهاد) مِن الدَّعوة.

(الدَّعوة) واسعة، أمرها واسع:

- يكون بـ (القول).
- يكون بـ (التَّعليم).
- ويكون بـ (العمل)؛ لذلك يجب أنْ يكون الإنسان قدوة؛ يدعو بـ (عمله) (أنْ يعمل).
- ويكون كذلك بـ (المال).
- ويكون بـ (اليد).
- ويكون بـ (الكتابة): كتابة البيان (بيان حُكم الله جَلَّ وَعَلَا) و(حُكم رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، ومثلًا (بيان تمييز الحقّ مِن الباطل فيما يلتبس به، وقد يُلبِّس به الأعداء)؛ فهو مِن الجهاد، مِن أعظم الجهاد.

ثمَّ المسألة الرَّابعة: قال: (الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ).

فـ (الصَّبر) أيضًا: يكون صبرٌ متعيِّن على كلِّ أحد؛ بحسب الشَّيء يلزمه فيه: (صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصية الله، وصبرٌ على أقدار الله وأحكامه القدريَّة).

فيكون (الصبر) أقسامٌ ثلاثة، وهو واجب:

- صبرٌ على طاعة الله.
- وصبرٌ عن معصية الله.
- وصبرٌ على ما يصيب الإنسان مِن المصائب؛ إذا أصابه شيء وجب عليه أنْ يصبر، ولا يجوز أنْ يتسخَّط مِن قضاء الله جَلَّ وَعَلَا.

ولكن هذا داخلٌ فيه: الصَّبر على الأذى فيه، يعني الدُّعاء، العِلم، إذا عَلِمه الإنسان ثمَّ عَمِل به ثمَّ دعا إليه: لا بدَّ أنْ يؤذَى، كلُّ مَن دعا لا بدَّ أنْ يُؤذَى؛ فيجب أنْ يصبر على الأذى؛ أَمَر بذلك.

وأَمَر رسوله في آياتٍ كثيرة، أَمَره بالصَّبر، وأمَره أنْ يصبر صبرًا جميلًا، وأَمَره أنْ يدفع بالَّتي هي أحسن، وأنْ يصبر ويحتسب صبره، ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾ [النحل:١٢٧].

وقول كثيرٍ مِن المفسِّرين: (أنَّ الآيات الَّتي جاء فيها الأمر بالصَّبر منسوخة بآيات السَّيف) غير سديد وغير دقيق؛ بل هو خطأ في الواقع.

إلَّا إذا أُرِيد بـ (النَّسخ): التَّخصيص؛ لأنَّه قد يُطلَق (النَّسخ) ويُراد به (التَّخصيص).

أمَّا إذا أُرِيد به (إزالة حُكم) بإبداله بـ (حُكْمٍ آخر): فهذا لا يجوز أنْ يكون.

ولهذا؛ ذكروا أنَّ (آية السَّيف نَسَخت ما يقرب مِن خمسمائة آية)! وهذا غير صحيح؛ آية السَّيف ما نسخت شيئًا؛ وإنَّما نسخت الأمر بعدم الجهاد (بعدم جهاد الكفَّار).

نَسَخته؛ لأنَّ (الجهاد) كان ممنوعًا أوَّلًا، لمَّا كان المسلمون في مبدأ أَمْرهم، وكانوا في مكَّة وكانوا قِلَّة؛ بحيث لو جاهدوا مِن الممكن أنْ يُقضَى عليهم؛ فكانوا ممنوعين مِن المجاهدة، مأمورين بالصَّبر.

ثمَّ بعد ذلك أُذِن لهم في الدِّفاع، أُذِن للَّذين يُقاتلون في القتال؛ دفاعًا عن أنفسهم وعن أموالهم وأولادهم فقط.

ثمَّ بعد ذلك جاء الأمر بـ (الجهاد)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة:١٢٣].

وقال: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة:٣٦] يعني عمومًا.

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣﴾ [التوبة].

والآيات كثيرة تأمر بالجهاد والقتال.

فهذه لا يجوز أنْ نقول: إنَّ هذه منسوخة بآية السَّيف؛ بل هي باقية مُحكمة.

ولكن المسلمون إذا وقعوا في مِثل الحالة الَّتي تُشبِه حالة المسلمين في أوَّل أَمْرهم في مكَّة: فإنَّهم يؤمَرون بالصَّبر وعدم الدُّخول في الجهاد؛ لأنَّهم إذا جاهدوا في هذه الحالة قُضِي عليهم ومُحوا.

وإذا تقوَّوا شيئًا ما: يعني إنَّ الأطوار الَّتي كان الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ سار فيها أنَّها باقية، إذا وقع المسلمون في الحالات الَّتي تُشبهها يستعملونها؛ هذا هو الصَّواب وهذا هو الحق الَّذي يجب أنْ يُعمَل

به.

فقوله: (الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ): يعني في العِلم الَّذي عَلِمه ودعا إليه، أنْ يصبر على الأذى؛ وذلك لأنَّ دعوته لله.

فالَّذي تكون دعوته لله لا بدَّ أنْ يصبر.

أمَّا إذا كان لغير الله: لن يصبر.

يصبر، والله أَمَر به.

ثمَّ ذكر الدَّليل؛ يقول: (وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر]).

ثمَّ ذكر قول الشَّافعي، وذكره بالمعنى؛ فقال: (قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ))؛ هذا ذكره بالمعنى.

والَّذي رُوِي عن الشَّافعي: (لو تأمَّل النَّاس في هذه السُّورة لوسعتهم).

والمعنى قريب.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: (﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ [العصر]): هنا قَسَم؛ يُقسِم جَلَّ وَعَلَا يحلف بذلك، والله جَلَّ وَعَلَا يحلف بما يشاء، يُقسِم بما يشاء مِن خَلْقه.

أمَّا نحن: فلا يجوز لنا أنْ نُقسِم إلَّا بما أَذِن لنا جَلَّ وَعَلَا فيه؛ وهو ربُّنا جَلَّ وَعَلَا، أو صفة مِن صفاته؛ أنْ نُقسِم بـ(الله) أو بـ(صفةٍ مِن صفاته).

وما عدا ذلك: لا يجوز.

مَن حلف إنْ كان حلف فليحلف بالله أو ليصمت.

«**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَو أَشْرَك**».

«**إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُم أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُم**».

فـ(الحلف بغير الله) لا يجوز لنا.

الله جَلَّوَعَلَا يُقسِم بالآيات الَّتي تكون دليلًا على وحدانيَّته وعلى مُلكه وقَهْره وتَفرُّده.

و(العصر): هو الزَّمن (اللَّيل والنَّهار)؛ لِمَا فيه مِن الآيات، وهو محلّ العمل، وهو محلّ الرِّبح والخسارة (رِبْح الإنسان أو خسارته)؛ لأنَّه مزرعته؛ فمزرعته: عمره الَّذي هو عبارة عن ساعات، كلُّ ساعةٍ تمرُّ على الإنسان يمضي وقت مِن عمره حتَّى ينتهي أَجَله فتُطوى صحيفته ويُختَم عليها، لا يستطيع أنْ يزيد فيها حسنة، ولا ينقص مِن السَّيِّئات سيِّئة.

فمِن أجل ذلك – لدلالته على أنَّه مِن آيات الله جَلَّوَعَلَا، وأنَّ الله جَلَّوَعَلَا خَلَقه وجعله دالًّا عليه، ولكون أيضًا مزرعة مكسبًا للسَّعادة، ومكسبًا للشَّقاوة – أقسم به جَلَّوَعَلَا؛ قال: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾ [العَصْر].

ثمَّ المُقسَم عليه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ [العَصْر]؛ هذا المُقسَم عليه.

و(الإنسان): جنس الإنسان؛ يعني يشمل كلَّ مَن صَدق عليه أنَّه إنسان (مِن ذكَر وأنثى).

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾ [العَصْر]: يعني كلُّهم خاسرون، كلُّ إنسان خاسر.

ثمَّ استثنى مِن (الخاسرين): ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العَصْر]: هنا آمنوا وعَمِلوا؛ يلزم أنْ يكون الإيمان عن عِلم، سَبَق (الإيمان) (عِلم)، وإلَّا ما يفيد.

ثمَّ (الإيمان) عمل؛ عملٌ في القلب، وعملٌ في الجوارح.

ثمَّ التَّواصي بـ(الحقِّ): الدَّعوة إلى العِلم الَّذي ذكره؛ لأنَّه يجب أنْ يدعو.

فـ(الدَّعوة) فيها التَّواصي؛ يُوصي بعضهم بعضًا بالحقِّ والعمل به والتَّمسُّك به.

ثمَّ (التَّواصي بالصَّبر).

فإذن السُّورة فيها المسائل الأربع الَّتي ذكرها؛ فهي دليل على وجوب ذلك.

ووجه الدَّلالة: واضح؛ وهو أنَّ الإنسان خاسر إنْ لم يكن مؤمنًا، وإنْ لم يكن مِن الَّذين آمنوا وعملوا الصَّالحات وتواصوا بالحقِّ وتواصوا بالصَّبر.

فـ(الإيمان) يسبقه (العِلم)، و(الإيمان) عمل، وعمل الصَّالحات تأكيدًا وزيادة بيان.

والتَّواصي بالحقِّ دعوة إليه، دعوة إلى هذا العِلم.

والتَّواصي بالصَّبر: أنْ يصبر على ما يناله فيه.

ولهذا؛ تكون السُّورة جامعة عظيمة جدًّا.

ولهذا؛ يقول الشَّافعي: (لو تأمَّلها لوسعتهم)؛ لو تأمَّلوا معانيها الَّتي دلَّت عليها لوسعتهم (يعني في دينهم، وفيما يلزمهم)؛ هذا معناه، فـ(وسعها) أنَّها تسعهم فيما يلزمهم في عبادة الله جَلَّوَعَلَا ودينهم.

ثمَّ ذكر دليلًا آخر: وهو ما ذكره البخاري؛ مستدلًّا به على هذا المعنى؛ فإنَّ البخاري قال في «صحيحه»: ((بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ، وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [مُحَمَّد:٩])؛ فَبَدَأَ بِالعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ).

والقول: هو قول (لا إله إلَّا الله): (﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [مُحَمَّد:٩]).

والعمل: (﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [مُحَمَّد:٩]).

فدلَّ على أنَّ (العِلم) يسبق.

وأنَّ (العمل) لا بدَّ منه.

و(العمل) يكون منه (القول).

وهذا (القول) الَّذي ذكره البخاري: هو أوَّل فرضٍ على الإنسان، ولكن يسبقه العِلم.

والفرض على الإنسان: أنْ يشهد ألَّا إله إلَّا الله، محمَّدٌ رسول الله.

هذا أوَّل ما يجب على الإنسان، وهذا هو الَّذي جاءت به الرُّسل مِن أوَّلهم إلى آخرهم؛ فأوَّل رسول يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾؛ وهذا معناه (لا إله إلَّا الله)، وكذلك الَّذين جاؤوا بعده.

ويقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النحل:٣٦]: يعني كلُّ رسولٍ يقول لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

فـ(عبادة الله): هي معنى (لا إله إلَّا الله)، واجتناب الطَّاغوت الَّذي اشتملت عليه الكلمة.

(الكلمة) اشتملت على: نفي وإثبات:

النَّفي: هو نَفْي المعبودات غير جَلَّوَعَلَا الله (وهي الطَّواغيت).

والإثبات: إثبات العبادة لله وحده.

فإذن قوله: (بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ): أَمْرٌ متَّفقٌ عليه بين العلماء: أنَّه يجب على الإنسان: أنْ يعلم أوَّلًا؛ وذلك أنَّه إذا عَمِل بلا عِلم فيكون عمله شِبه فِعْل السَّاهي والسَّكران والمجنون، ليس ثابتًا، وإذا شُكِّك في ذلك شكَّ، وإذا نُسِي نَسَى.

بخلاف الشَّيء الَّذي يكون بـ(العِلم)؛ فإنَّه يثبت ولا يتزحزح عنه؛ فلا بدَّ منه.

ثمَّ لا بدَّ مِن العمل بـ(العِلم)؛ يعمل بعِلمه، ثمَّ بعد ذلك يصبر، يدعو ويصبر على الأذى فيه.

فهذه المسائل الأربع: يتبيَّن منها: أنَّها تكون فرض عين، وتكون فرض كفاية.

وقوله: (اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ -): خطابٌ لكلِّ فرض مِن الأُمَّة: أنَّ هذا يجب عليه، وعليه أنْ يعرف الشَّيء الَّذي يلزمه.

والشَّيء الَّذي يلزم الأُمَّة عمومًا ليس لازمًا له إذا لم يكن مِن أهل العِلم [1].

---

(١) نهاية المجلس الأول.

قال المصنف رحمه الله:

اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ: تَعَلُّمُ ثَلَاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ وَالعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا؛ فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المُزَّمِّل].

الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجِنّ].

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المُجَادَلَة].

اعْلَمْ - أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ - **أَنَّ (الحَنِيفِيَّةَ) مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ.

وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّارِيَات]، **وَمَعْنَى (يَعْبُدُونِ)**: يُوَحِّدُونِ.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ: التَّوْحِيدُ؛ وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ: الشِّرْكُ؛ وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ؛ **وَالدَّلِيلُ**: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّسَاء:٣٦].

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

تقدَّم في الدَّرس الماضي أنَّه ذكر **أربع مسائل أنَّها تجب علينا:**

الأُولى: العلم.

والمقصود بـ (العِلم): العلم الشَّرعي الَّذي جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّانية: العمل به؛ لأنَّ العِلم بلا عمل لا يفيد ولا يجدي شيئًا.

الثَّالثة: الدَّعوة إلى ما عَلِم مِن دين الله الَّذي جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الرَّابعة: الصَّبر على الأذى في الدُّعاء إلى الله جَلَّ وَعَلَا.

وقال: (يَجِبُ عَلَيْنَا): و(علينا): يعني المسلمين، (على جميع المسلمين تجب عليهم).

وهذه – كما سبق – تختلف الوجوه فيها مِن فردٍ إلى آخر.

الإنسان قد يجب عليه ما لا يجب على الآخر؛ إذا كان عنده مِن العِلم والاستطاعة إلى الدَّعوة يجب عليه ما لا يجب على الَّذي ليس عنده عِلم وليس عنده استطاعة على الدَّعوة والطَّريق إليها.

أمَّا (العِلم) في الجملة: يعني:

- العِلم الواجب أنَّه واجبٌ أوجبه الله.

- وعِلم أنَّ هذا مُحرَّم؛ المُحرَّمات الَّتي حرَّمها الله: مثل الخمر والزِّنى والرِّبا وما أشبه ذلك مِن الأمور الظَّاهرة.

فإنَّ هذا يجب أنْ يعلمه كلُّ مسلم وكلُّ مسلمة؛ فإنْ قَصَّر في ذلك فهو آثم؛ يُعاقبه الله جَلَّ وَعَلَا على تقصيره.

وكذلك إذا عَلِم أنَّ هذا واجب وهذا مُحرَّم: يجب عليه أنْ يعمل بذلك، وإلَّا ما يفيده عِلمه شيء إلَّا زيادة العذاب.

أمَّا الدَّعوة إلى العِلم: فهذا يختلف باختلاف النَّاس.

في الجملة: كلُّ مسلمٍ مأمور أنْ يأمر بـ (المعروف) وينهى عن (المنكر)؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

و(الخيريَّة) تكون بـ (الأمر والنَّهي).

وكذلك قول الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّره بِيَده، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه؛ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَان**»؛ وهذا خطابٌ للأُمَّة كلِّها.

كما أنَّ الآية خطابٌ للأُمَّة كلِّها.

كذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ﴾ [آل عمران:١٠٤].

ثمَّ قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]؛ وهذه الجملة تدلُّ على أنَّ الفلاح محصورٌ في هؤلاء، ومَن عداهم: فليس بـ (مُفلِح).

ولهذا السَّبب قال بعض العلماء: إنَّ الدَّعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر: رُكنٌ مِن أركان الإسلام.

فجَعَل (أركان الإسلام) سِتَّة؛ هذا أحدهم.

ومعلومٌ أنَّ الإنسان يختلف ما يجب عليه باختلاف استطاعته وباختلاف ما عَلِم وما أدرك؛ لأنَّ الواجب بالأمر والنَّهي: أنْ يكون على بصيرة؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف].

ثمَّ الصَّبر؛ لأنَّ الدَّعوة والأمر لله، ليس لأحد؛ لا للنَّفس، ولا لفلان، ولا لمصلحة دنيويَّة.

فيجب إذا أُصيب بمصيبةٍ مِن قِبَل النَّاس المدعوِّين: أنْ يحتسب ذلك؛ يحتسبه في عمله عند الله جَلَّ وَعَلَا؛ فيصبر لأنَّه يُطالِعه بقلبه وبنَظَره العقلي، يُطالِع جزاء الله الَّذي سيجزيه عليه؛ فيهون عنده كلُّ أذى، يصبح ليس شيء.

يستضعف الأذى ويستصغره إذا طالع بقلبه ما وَعَده الله جَلَّ وَعَلَا وما أعدَّه له؛ ويكون ذلك ليس انتصارًا لنفسه، وليس دعوةً لحزبه وقَبيله، وليس تَفَرُّعًا على الخَلْق لأنَّه يعلم وأنَّه يستطيع أنْ يأمر وينهى، وليس لأجل مخلوقٍ مِن المخلوقين؛ وإنَّما هو امتثالٌ لـ (أَمْر الله) وطَلَبٌ لـ (ثوابه)، ورحمةٌ لـ (الخَلْق) أنْ يقعوا في عذاب الله جَلَّ وَعَلَا.

يكون هذا هو سبيله في الدَّعوة.

وإذا كان هذا سبيله في الدَّعوة: فسوف يصبر على ما ناله؛ لأنَّه في سبيل الله جَلَّوَعَلَا، والله يجزيه على ذلك، والله مع الصَّابرين.

ثمَّ بعد هذا ينتقل إلى أَمْرٍ آخر؛ وهو قوله: (اعْلَمْ).

الأوَّل: يقول: (اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا).

وهنا: يقول: (اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ).

والفَرْق بين هذا والَّذي قبله: أنَّ هذا فرضٌ يتعيَّن على كلِّ فرد (يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ).

(تَعَلُّمُ ثَلَاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ): يقول: (تَعَلُّمُ): أنَّه يجب أنْ يعلم ذلك.

وليس مجرَّد التَّعلُّم فقط، يتعلَّمها لأنَّ علمها واجب، واجب أنْ يعلم ذلك، وهذا لا ينافي السَّابق وإنَّما هو تأكيدٌ له.

(اعْلَمْ - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ: تَعَلُّمُ ثَلَاثِ هَذِهِ المَسَائِلِ وَالعَمَلُ بِهِنَّ): لا بدَّ مِن (التَّعلُّم) و(العمل).

وسبق أنَّ (العِلم) قبل (العمل) وأنَّه مُقدَّم؛ لأنَّ مِن شرط العمل: أنْ يكون الإنسان عالِمًا، لا بدَّ.

وفي ضمن هذا: مسألتان:

أحدهما: أنْ يعلم ما كلَّفه الله به، وهذا أصل مِن الأصول الثَّلاثة.

والثَّاني: أنَّ هذا العِلم الَّذي يعلمه يجب أنْ يكون عن طريق الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ليس عن طريق العقل ولا عن طريق التَّقليد ولا عن غير ذلك؛ وهذا أصلٌ آخر: أنْ يعلم أنَّ الله أوجب عليه ذلك، وأنْ يأخذ ذلك عن الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ولا يمكن أنْ يُقبَل عمل مِن الأعمال إلَّا بهذا، كلُّ الأعمال مبنيَّةٌ على ذلك.

و(العلم) ليس مجرَّد إيصال المعرفة، والوصول إلى معرفة بأنَّ هذا واجب وهذا مُحرَّم.

(العلم) المقصود به: أنْ يصل إلى القلب ويتحلَّى به القلب، ويصبح قاصدًا ربَّه جَلَّوَعَلَا بذلك، خاضعًا له وذالًّا لأمره ومُنقادًا له.

أمَّا (العمل): فهو امتثال الأمر واجتناب النَّهي في الظَّاهر فقط.

وهذا أَمْرٌ يتقيَّد بالشَّيء المعيَّن الَّذي عيَّنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا (على كلِّ مسلم)؛ لأنَّه ما جاءنا بأوامر مطلقة وأوامر كثيرة ونواهٍ كذلك؛ **بل أمرنا بخمسة أمور**؛ إذا حافظنا عليها دخلنا الجنَّة؛ والخمس سهلة، ليست صعبة:

الأُولى منها: أنْ نعبد الله جَلَّ وَعَلَا؛ نعبده بالأمر الَّذي جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومعلومٌ أنَّ هذه تشمل الخمس كلَّها؛ (عبادة الله) تشمل كلَّ الخمس، ولكن خُصَّت الخمس للتَّأكيد وزيادة البيان؛ وهي (شهادة ألَّا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله) وهذه واحدة؛ لأنَّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الَّذي يُبيِّن، وهو الَّذي يأتي بـ(الأمر والنَّهي) مِن عند الله.

فمعنى ذلك: أنَّه لا بدَّ لنا مِن واسطة بيننا وبين ربِّنا؛ واسطةٌ تُوصل إلينا أَمْر الله جَلَّ وَعَلَا ونَهْيه؛ لأنَّ الله لا يُكلِّمنا ولا يوحي إلى كلِّ فرد؛ هذه الواسطة: هو الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و(الواسطة) تكون في شيءٍ معيَّن فقط وليس في كلِّ شيء؛ في (إيصال الأوامر والنَّواهي): أنَّ هذا (أَمْر الله) كلَّفنا باتِّباعه، وهذا (نَهْي الله) كلَّفنا باجتنابه؛ فهذا الأصل الثَّاني.

يعني كون الواسطة هو الرَّسول الَّذي يُبيِّن لنا:

الأوَّل: أنْ نعلم أنَّنا مكلَّفون، وسيُكرِّر هذا ويُفصِّله فيما بعد؛ يُفصِّله بطريقة السُّؤال والجواب، ولكن هو أتى به مُجملًا هنا، ويكفي هذا الإجمال لأنَّه واضح وبيِّن.

(**الأُولَى**: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا): مجرَّد الخَلْق والرِّزق: هذا قد يُدركه كلُّ عاقل، وهذا لا يكفي في كون الإنسان ينجو مِن عذاب الله جَلَّ وَعَلَا؛ بل هذا لا يتميَّز به المؤمن مِن الكافر، الكافر يُدرِك ذلك ولا ينفعه؛ يُدرِك أنَّ الله خالقه، وأنَّ الله رازقه.

ولكن المقصود بـ(الخَلْق): أنْ يستدلَّ به على أنَّه مُكلَّف بعبادة الله جَلَّ وَعَلَا؛ خُلِق ورُزِق ولم يُترَك كـ(البهائم) تأكل وتشرب وتلهو وتطرب؛ بل قُيِّد بـ(أوامر) وقُيِّد بـ(نواهٍ) يجب أنْ يمتثلها، وإنْ لم يمتثلها فإنَّه لا يكون عبدًا لله جَلَّ وَعَلَا؛ بل يكون عبدًا للشَّيطان، وعبدًا لهواه (لأَكْله وشُرْبه، ولَهْوه وطَرَبه).

والإنسان لا ينفكُّ عن هذين الأمرين:

- إمَّا أنْ يكون عبدًا لله جَلَّوَعَلَا.

- أو يكون عبدًا لهواه، أو عبدًا لشيطانه، أو عبدًا لشهواته، أو عبدًا لرئيسه وسيِّده، أو عبدًا لزوجته، أو عبدًا لِمَا شاء الله جَلَّوَعَلَا مِن الخَلْق؛ جزاءٌ مِن الله جَلَّوَعَلَا: أنَّ الَّذي يُعرِض عن عبادة الله جَلَّوَعَلَا أنْ يجعله عبدًا لمخلوقٍ مِثله ضعيف لا يملك شيئًا.

ثمَّ بعد ذلك إذا انتهت حياته هذه – وهي حياةٌ قصيرة، ليست طويلة – سيُجمَع مع معبوده في نار جهنَّم، ويكون كلُّ واحد يلعن الآخر؛ لأنَّه يرى أنَّه هو السَّبب في هلاكه، **والواقع**: أنَّه هو الَّذي أهلك نفسه.

وهذا كرَّره ربُّنا جَلَّوَعَلَا في القرآن كثيرًا؛ حتَّى نتنبَّه ونعرف ذلك ونجتنبه.

ومقصوده: أنَّ هذا أَمْرٌ واضح؛ كون الله خَلَقنا أَمْر واضح، وهو دالٌّ على وجوب العبادة، خَلَقنا وخَلَق لنا ما نأكل وما نشرب وما ينفعنا، كلُّه مِن مخلوقات الله جَلَّوَعَلَا وتسخيره.

كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة].

ففي الآية: أنَّ كلَّ شيءٍ مِن الله جَلَّوَعَلَا: الإيجاد ابتداءً، والقيام على الحياة بعد الإيجاد بما ينفعها وما يُصلحها؛ فهو الَّذي ابتدأ وجودنا جَلَّوَعَلَا، وهو الَّذي أنعم علينا بما يُصلحنا، يصلِح أبداننا ويُصلِح نفوسنا، ويُصلِح ما نحتاج إليه مِن دنيانا، كلُّها مِن الله جَلَّوَعَلَا.

فلهذا قال: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة:٢١]؛ فأَمَر بـ (العبادة) أوَّلًا، ثمَّ جاء بـ (الدَّليل) الَّذي يُوجِب أنْ نعبده، وهو كونه جَلَّوَعَلَا خلَقَنا وخلق لنا ما ينفعنا؛ فهو مالكنا، وهو الَّذي بيده حياتنا وموتنا فيجب أنْ نعبده.

فإذا لم نفعل ذلك: فإنَّه قد أعدَّ لنا عذابًا عظيمًا جدًّا، (عذاب النَّار) نسأل الله العافية.

فلهذا قال: (**الأُولَى**: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا): **الهَمَل**: هو الَّذي يكون لا يُؤمَر ولا يُنهَى ولا يُوجَّه؛ ولهذا تُسمَّى (الإبل الَّتي تنفلت مِن أصحابها) هَمَلًا؛ لأنَّها ليس لها أحد يُوجِّهها ويقوم

على مصلحتها؛ بل تسلك الطَّريق؛ إمَّا أنْ تهلك وتعطب وإمَّا تجد مَن يقوم عليها غير أهلها.

فـ(الهَمَل): الَّذي لا يُؤمَر ولا يُنهى.

الله جَلَّوَعَلَا نفى ذلك؛ يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة]: يعني (لا يُؤمَر ولا يُنهَى).

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة].

يقول جَلَّوَعَلَا: إنَّ كثيرًا مِن النَّاس أو أكثرهم يتصوَّرون - فيما هُم فيه مِن حياتهم -: أنَّهم لم يُكلَّفوا بـ(الأمر والنَّهي)، أنَّهم خُلِقوا لهذه الحياة يتصرَّفون فيها حسب مراداتهم وأهوائهم! وهذا هو الهَمَل، يتصرَّف على ما يروق له! ثمَّ يقول كثيرٌ مِن النَّاس: (أنا حُر أفعل ما أريد)!! هذا كذب.

لستَ حُرًّا؛ أنت عَبْد لله جَلَّوَعَلَا؛ يجب عليك أنْ تمتثل أَمْره وتجتنب نَهْيه.

فالَّذي يقول كذا يعني أنَّه شِبه البهائم.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة]: سُدًى: هو الَّذي لا يُؤمَر ولا يُنهَى؛ يُهمَل.

ثمَّ بَيَّن الدَّليل على أنَّه لا يُترَك سُدى (مِن نَفْس الإنسان)، بيَّن ذلك مِن نفسه؛ فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة]: كان قطرة مِن ماء مهين قَذِر لو تُرِك ساعةً مِن النَّهار لفسد وأنْتَن.

ولكنَّ الله جَلَّوَعَلَا جَمَع بينه وبين ماء المرأة في قرارٍ مَكين، وجَعَل مِن الأسباب الدَّاعية لذلك ما هو دليلٌ على أنَّ الله جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يجب أنْ يُعبَد ويُطاع؛ فركَّب الشَّهوة الدَّاعية لذلك للجانبين.

وإلَّا لو تُرِك الإنسان وعقله بدون مؤثِّرات ما التقيا؛ لأنَّ المناظر سيِّئة (عورة تلتقي بعورة) والعقل ينفر مِن ذلك.

ولكنَّ الله جَلَّوَعَلَا - بقُدرته وحكمته - ركَّب في الإنسان الشَّهوة الَّتي تدعو إلى ذلك، ثمَّ الأمور الدَّاعية لإخراج الماء مِن مكانٍ ضيِّق: ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق]. ثمَّ يستقرُّ في مكان.

ثمَّ يُكوِّن الله جَلَّوَعَلَا مِن هذا الماء المَهين، يستحيل فيُصبح دمًا، ثمَّ يستحيل ويصبح قطعة لحم، ثمَّ

يكون عظامًا، ثمَّ يُركِّب منه أعضاء وأجزاء، ويفتح فيه منافذ (مِن الفم، والأنف، والعينين، والأذنين)، ويُركِّبه تركيبًا مِن أجمل ما يكون.

مَن الَّذي يفعل هذا؛ لا المرأة ولا الرَّجل، ولا أحد مِن الخَلْق.

فآيات الله جَلَّوَعَلَا في الإنسان، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة].

هذا معنى قوله: (خَلَقَنَا): يعني يجب أنْ يُفكِّر الإنسان في خَلْقه.

وكم ذكر الله جَلَّوَعَلَا خَلْق الإنسان في كتابه؟! كثير: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق]: بَيَّن أنَّه خَلَقه خَلْقًا عجيبًا.

وقال: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]: يعني في أنفسكم آيات تدلُّ على أنَّ الله جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يجب أنْ تعبدوه وتُوحِّدوه، وأنْ تمتثلوا أَمْره.

ثمَّ جَعَل هذا دليلًا على النَّشأة الأخرى، على المعاد، على أنَّه سيعيدهم مرَّة أخرى ويجزيهم على أعمالهم؛ فهو دليل على المُوجِد، ودليلٌ على الجزاء والإعادة الَّتي سوف تكون بعدما يفنى هذا البدن.

هذه الأبدان تفنى وتبقى أرواحًا إمَّا مُعذَّبة أو مُنعَّمة.

(**الأُولَى**: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا؛ بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا): الأُولى هذه في ضمنها ثلاث مسائل؛ الَّتي هي الأصول الثَّلاثة.

في ضمنها: وجوب عبادة الله جَلَّوَعَلَا.

وفيها أنَّ العبادة تكون بـ(الأمر والنَّهي)، بـ(أَمْر الله ونَهْيه).

وفيها أنَّ الأمر والنَّهي يأتي به الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فهذه هي الأصول الثَّلاثة الَّتي يجب على المسلم أنْ يتعلَّمها ويعرفها.

وما بعد هذا كلُّه: مِن الواجبات الَّتي تجب لهذه الأصول.

كون العبادة والتَّوحيد لله جَلَّوَعَلَا وأنَّه يُفرَد بالعبادة: العبادة لا تكون عبادةً شرعيَّة إلَّا إذا كانت لله وحده (وهو التَّوحيد).

أمَّا عبادة مشتركة تكون بين الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا وبين غيره مِن المخلوقات: فهي وإنْ سُمِّيت في اللُّغة (عبادة) فهي باطلة، وهي الشِّرك الَّذي حرَّم الله جَلَّوَعَلَا الجنَّة على صاحبه إذا مات على ذلك.

والرَّسول الَّذي يرسله مِن حكمته جَلَّوَعَلَا ورحمته أنَّه يجعل له آياتٍ تدلُّ على أنَّه رسول مِن عند الله؛ لئلَّا يغترَّ النَّاس بكلِّ مَن قال: (أنا رسول وأنا جئت بكذا وكذا مِن عند الله)، ويلتبس ذلك بما هو حق؛ فجعل له آيات في نفسه – كما سيأتي –، وآياتٍ يجعلها الله جَلَّوَعَلَا له لا قدرة له فيها؛ وإنَّما هي مِن خَلْق الله جَلَّوَعَلَا وبأمره وإرادته؛ كما سيأتي في كيفيَّة معرفة الرَّسول (كيف نعرفه، كيف نعرف رسولنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كيف تعرف الأُمَّة رسولها).

كلُّ أُمَّه لها رسول، ولا بدَّ أنْ تتحقَّق ذلك.

أمَّا معرفة الله جَلَّوَعَلَا بأنَّه خلقنا، فإذا لم يهتدِ الإنسان إلى ذلك في نفسه فإنَّ أمامه أشياء كثيرة جدًّا تدلُّ على أنَّ الله هو خالقه، مِن المخلوقات المُشاهَدة.

كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

وسواءً قلنا في قوله: ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] (الرَّسول) أو (الدِّين الَّذي جاء به) كلُّه سواء؛ فهو يشمل هذا وهذا؛ يتبيَّن أنَّ الرَّسول حقٌّ جاء مِن عند الله، وأنَّ الدِّين الَّذي جاء به حقٌّ جاء مِن عند الله، كلُّه يتبيَّن بذلك في النَّظر.

الله جَلَّوَعَلَا جَعَل في الإنسان عقلًا، منذ خَلَقه فَطَره على فطرة المعرفة؛ معرفة المؤثِّر: أنَّ كلَّ أَثَرٍ له مُؤثِّر ولا بدَّ.

حتَّى الطِّفل الصَّغير إذا ضُرِب وتألَّم لو قلت له: (اسكت ما أحد ضَرَبك) ما يقتنع بذلك ولا يرضى حتَّى تقول: (اضرب مَن ضربك، عاقب الَّذي ضربك) عند ذلك يقتنع؛ لأنَّه يعرف أنَّ الضَّرب له ضارب، الأثر له مؤثِّر؛ هذا أَمْرٌ مفطورٌ عليه المخلوق، حتَّى الصَّغير الَّذي ما ميَّز حتَّى الآن.

فلهذا؛ إذا نَظَر الإنسان ما حوله مِن الجبال، ومِن الأشجار، ومِن الأنهار، ومِن البحار، ومِن السَّماء، والنُّجوم، والرِّياح، والسَّحاب، والأمطار وغيرها: لا بدَّ أنْ يكون لهذه مُوجِد أَوْجَدها؛ لأنَّه لا يمكن أنْ يكون جبل يُوجِد الجبل، ولا شجرة تُوجِد شجرة، ولا إنسان يُوجِد إنسان، ولا يمكن أنْ تكون سيَّارة

أوجدت وصَنَعت سيَّارة؛ لا بدَّ أنْ يكون المُوجِد غير هذا الَّذي نشاهده مِن الموجودات.

ولا بدَّ أنْ ينتهي العقل إلى شيءٍ يقتنع به.

لأنَّه لو قلنا مثلًا: (هذا المخلوق أَوْجده مخلوقٌ أكبر منه) فذلك المخلوق مَن الَّذي أَوْجده؟ أَوجده مخلوقٌ آخر، ثمَّ تتسلسل الأمور إلى ما لا نهاية.

وكلُّ هذا باطل، دليلٌ على البُطلان (التَّسلسل).

فلا بدَّ أنْ تنتهي المسألة عند خالقٍ عليمٍ بصيرٍ قديرٍ، بيده ملكوت كلّ شيء.

هذا مِن الآيات الَّتي يُدركها العقلاء كلُّهم، بالمُشاهَدة والنَّظر، وهي كافية في وجوب عبادة الله جَلَّ وَعَلَا.

ثمَّ كذلك مِن الآيات: إجابة الدُّعاء، كلُّ إنسانٍ جَرَّب هذا، كلُّ مخلوقٍ سواءً كان مؤمنًا أو كافرًا؛ لأنَّه لا بدَّ أنْ تضطر الحياة إلى أَمْرٍ يقع فيه فيتَّجه إلى مَن يعلم أنَّه يُنجِيه مِن هذا الكرب ومِن هذا الأمر؛ فيجد الفَرَج بعد الاتِّجاه والصِّدق.

ولهذا؛ جاء الله جَلَّ وَعَلَا بذلك دليلًا على وجوب عبادته؛ لمَّا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢] مَن؟ لا يوجد إلَّا الله جَلَّ وَعَلَا؛ هو الَّذي يجيب المضطر إذا دعاه.

حتَّى إنَّ البهائم إذا وقعت في شِدَّة وكَرْب ترفع رؤوسها إلى ربِّها جَلَّ وَعَلَا؛ تستغيث به، حتَّى الحيوانات جَعل الله جَلَّ وَعَلَا فيها الإحساس وفيها الإدراك لذلك.

وقد قَصَّ الله جَلَّ وَعَلَا علينا أشياء فيها عِبَر؛ منها: ما ذكره عن نبيِّه سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنَّه لمَّا أتى على وادي النَّمل – وقد أُعطي منطق الحيوانات ومنطق الطَّير – سمع نملةً تُحذِّر قومها وأصحابها؛ تقول: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨] لأنَّكم لستم عنده شيء فهو لا يراكم.

فهذا مِن آيات الله جَلَّ وَعَلَا.

وفي «صحيح البخاري»: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر نبيًّا خرج بقومه ليستسقي بهم؛ فوَجَد نملةً مستلقيةً على ظهرها ورافعةً أقوامها إلى السَّماء وتقول: (اللَّهمَّ إنَّا خَلْقٌ مِن خَلْقك فلا تمنع عنَّا بذنوبنا

فضلك)؛ فقال: (ارجعوا؛ فقد سُقيتم بدعوة غيركم).

وفي الحديث الصَّحيح عنه أيضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنَّ الحُبارى تلعن عصاة بني آدم إذا تأخَّر القَطر؛ تقول: مُنِعْنا القَطْر بسببكم.

يقول ابن القيِّم في كتابه «مفتاح دار السَّعادة»: (حدَّثني الثِّقة يقول إنَّه شاهد نملةً تحاول أنْ تحمل حبَّةً كبيرة فما استطاعت؛ فذهبت وجاءت بجماعةٍ مِن النَّمل تستعين بهم؛ فلمَّا وصلت إلى المكان الَّذي فيه الحبَّة رفعت الحبَّة، فدارت ودُرن فلم يجدن منها شيئًا فانصرفن، فوضعتُ الحَبَّة فجاءت النَّملة الَّتي كانت تحاول؛ فحاولت مرَّة أخرى فما استطاعت؛ فذهبت وجاءت بالجماعة، فلمَّا أقبلن رفعتُها، فدارت ودُرن في المكان فلم يجدنها فانصرفن، فوضعتُها فجاءت تحاول، حاولت مرَّة أخرى فما استطاعت، فذهبت وجاءت بالجماعة، فلمَّا وصلن إلى المكان رفعتُها الثَّالثة، فدارت ودُرن في المكان فلم يجدنها، فتقاتلن عليها فقطَّعنها؛ لأنَّها كذبت عليهنَّ ثلاث مرَّات).

وفي «صحيح البخاري»: أنَّ رجلًا يقول: (شاهدتُ قردةً زَنت فاجتمعت عليها القرود فرجمنها، ورجمتُها معهم في الجاهليَّة).

وإذا نَظَر الإنسان في الحيوانات والطُّيور كيف جَبَلها الله جَلَّ وَعَلَا على مصالحها، كيف قبل أنْ تقترن الطُّيور، وتبدأ تجمع العُش وتُهيِّئه ثمَّ يُهيِّئن مكانًا للبيضة، ثمَّ يعكفن عليها حتَّى تُفَقِّس، ثمَّ يقمن بتربيتها وجَلْب الماء والطَّعام لها إلى أنْ تصل إلى الطَّيران، ثمَّ بعد ذلك لو رأينها تطلب منهنَّ شيئًا قاتلنها؛ يأمرونها بالذَّهاب وطلب الرِّزق.

فكلُّ هذا ليس مِن عقلٍ فيها (في هذه الطُّيور وهذه الحيوانات)؛ وإنَّما أَمْرٌ جَبَلَها الله جَلَّ وَعَلَا عليه؛ إذا نَظَر الإنسان إليها عَلِم أنَّ لها خالقًا خلقها، وهو جَلَّ وَعَلَا ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

هداها لمصالحها في مصالح حياتها.

وأمَّا الهداية الَّتي فيها عبادته: فهذه لمَن كلَّفه الله جَلَّ وَعَلَا لعبادته مِن الجنِّ والإنس.

أمَّا هذه: فهي هداية لحياتها، وهي مِن مصالح بني آدم.

ولهذا؛ يقول القائل: وفي كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنَّه واحد جَلَّ وَعَلَا في كلِّ شيء، آيات.

الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور]: هل يمكن أنْ يكون مخلوق خُلِق مِن غير خالق؟! هذا مستحيل، وهل يمكن أنْ يكون المخلوق خلق نفسه؟! هذا لا يمكن، مستحيل؛ إذن لا بدَّ أنْ يكون له خالق، وهذا الخالق قد ظهرت آياته جَلَّوَعَلَا وبانت؛ فهو الَّذي يجب أنْ يُعبَد.

فهذا أصلٌ يجب أنْ يُعلَم، ولا يجوز للإنسان أنْ يكون جاهلًا لذلك.

فإنْ جَهِل هذا فإنَّه يكون مستحِقًّا لعقاب الله جَلَّوَعَلَا.

فإذا كان الله خَلَقنا: فمِن المستحيل أنْ يتركنا بلا أَمْرٍ ولا نَهْي؛ لأنَّ الله خَلَقنا لعبادته، والأمر والنَّهي ما يكون لنا مباشرة مِن ربِّنا جَلَّوَعَلَا؛ وإنَّما يكون مِن طريق الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

هذا هو وجه كون هذه الأصول ثلاثة:

- يعرف الإنسان أنَّ ربَّه هو الَّذي يجب أنْ يعبده.

- ويعبده بأَمْره ونَهْيه.

- وأمره ونَهْيه طريق التَّعرُّف عليه: عن طريق الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ولهذا قال: (بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا).

وهذا ليس خاصًّا بنا؛ كلُّ أُمَّةٍ لها رسول.

والمسلم يجب عليه أنْ يؤمن برسل الله جميعًا، ولكن مِن باب الاختصار: أنَّه يؤمن برسوله على سبيل التَّفصيل برسوله الَّذي كُلِّف به؛ يعرف الأوامر الَّتي جاء بها والنَّواهي الَّتي كُلِّف باجتنابها.

... [٢] رسل الله:

* فيعلم أنَّهم أُرسِلوا إلى أُمم وأنَّهم جاؤوا بالهُدى ودين الحقِّ، ورُسل الله الَّذين قصَّهم علينا في القرآن في كلِّ قصصهم: أنَّهم جاؤوا بهذا؛ بوجوب عبادة الله جَلَّوَعَلَا، وأنْ يُخلَص له الدِّين، أنْ يُخلِصوا له العبادة.

---

(٢) قطع في التسجيل، ومثله ما كان فيه نقاط في بقية التفريغ.

* وأنَّ مَن اتَّبعهم وأطاعهم سَلِم مِن عذاب الله ونجا في الدُّنيا، ووُعِد في الآخرة الجزاء العظيم؛ الَّذي يَسعَد فيه أبد الآبدين، وإذا عصا فإنَّه يُعاقَب في الدُّنيا، ثمَّ يصير بعد ذلك إلى جهنَّم.

قصَّ علينا قصَّة أَبَوَيْنا لمَّا أسكنهما لمَّا خلقهما..، خَلَق آدم مِن تراب، وعلَّمه أسماء كلِّ شيء، وأسجد له ملائكته (أمَرَهم أنْ يسجدوا له)، ثمَّ أسكنه الجنَّة، وخَلَق زوجه منه؛ نام نَوْمَة فاستيقظ وهي عنده، وأباح لهما الجنَّة إلَّا شجرة واحدة؛ قال: (هذه الشَّجرة لا تقرباها)، وحذَّرهما مِن الشَّيطان، ولكن أَمْر الله (الَّذي قضاه) لا بدَّ منه.

وقصَّ علينا قصَّة نوح مع قومه (كيف أُهلِكوا)، و(لماذا) لأنَّهم عبدوا غير الله.

ثمَّ قصَّة علينا قصَّة هود مع قومه.

ثمَّ قصَّة صالح مع قومه.

ثمَّ كذلك قصَّة شُعَيب، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وغيرهم مِن الرُّسل.

والرُّسل الَّذين جاؤوا في القرآن خمس وعشرون رسولًا؛ ذكرهم الله جَلَّوَعَلَا بقصصهم، وأخبر أنَّهم جاؤوا بالهُدى إلى قومهم.

وقد قال بعض العلماء: يجب على المسلم أنْ يعرف الرُّسل الَّذين جاؤوا بالقرآن؛ لأنَّ الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]؛ هذه مِن الأصول؛ لا بدَّ مِن الإيمان بالرُّسل، كما أنَّه لا بدَّ مِن الإيمان بالملائكة – كما سيأتي.

(فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّة):

(أَطَاعَهُ): اتَّبع ما جاء به بـ(أنَّ هذا أَمْر الله أَمَرنا أنْ نفعله، وهذا نَهْيه نهانا أنْ نقترفه).

فمَن أطاع الرَّسول دَخَل الجنَّة، وليس الأمر مطلقًا هكذا.

(فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ).

قال لنا كما سمعنا: (اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأقيموا الصَّلاة، وآتوا الزَّكاة، وصوموا رمضان، وحُجُّوا البيت) هذه الأوامر.

أمَّا النَّواهي: فحرَّم علينا مُحرَّمات معيَّنة عيَّنها.

وما سكت عنه ولم يُعيِّنه: فهو مباح، عفو، عفا الله .

فالأمر واضح، ليس فيه خفاء.

ثمَّ النَّواهي الَّتي نُهِينا عنها: لا مصلحة لنا فيها، لا يترتَّب عليها لا ..؛ بل إنَّما يُسوِّلها الشَّيطان، وقد تُزيِّنها النُّفوس.

يعني أنَّ المصلحة في الأوامر الَّتي نفعلها، أمَّا النَّواهي: فالمصلحة في اجتنابها.

ولهذا؛ صار (النَّهي) آكد مِن (الأمر)؛ كما في «صحيح مسلم» يقول: «**إِذَا نَهَيْتُكم عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوه**».

«**إِذا أَمَرْتُكُم بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْه مَا اسْتَطَعْتُم، وَإِذَا نَهَيْتُكم عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوه**»؛ لأنَّ هذا سهل؛ مجرَّد التَّرك.

التَّرك: اجتناب؛ فلا تترتَّب عليها حياة ولا مصلحة.

والمقصود: أنَّ طاعة الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أوجبه الله جَلَّ وَعَلَا علينا (الَّذي جاء به)، وما حرَّمه علينا.

أمَّا ما وراء ذلك مِن الأمور المستحبَّات وتَرْك الأمور المكروهات: فهذا فضل؛ إذا فَعَله الإنسان يتحصَّل على خيرٍ وترتفع به درجاته.

ولهذا؛ جَعَل الله جَلَّ وَعَلَا أهل السَّعادة...؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر:٣٢].

الظَّالم لنفسه: هو الَّذي قصَّر في الواجبات، تَرَك بعضها، وارتكب بعض المحرَّمات، ولكن الأصول معه، أصل الدِّين وأصل التَّوحيد معه، لم يعمل الشِّرك، ولم يجحد واجبات الله، ولم يُحِلّ محارم الله؛ بل ارتكب ذنوبًا واعترف بأنَّه مذنب؛ فيموت على هذا: (معه التَّوحيد ولكنَّه معه ذنوب؛ لتَرْك واجبات وارتكاب مُحرَّمات، وهو معترف أنَّه مُقصِّر وأنَّه مذنب)؛ فهذا مِن السُّعداء وإنْ أصابه ما أصابه.

إذا عاقبه الله جَلَّ وَعَلَا على تَرْك الواجب أو فِعْل المُحرَّم فإنَّه يكون عقابًا مؤقَّتًا؛ إمَّا في القبر فقط؛ فإنْ لم يفِ ذلك يكون في الموقف مِن الكرب والشِّدَّة - لأنَّ (كَرْب الموقف) يتفاوت تفاوتًا عظيمًا -، وإنْ

لا يكفي ذلك يكون في النَّار، يُوضَع في النَّار قَدْر جُرْمه، ثمَّ بعد ذلك يُخرَج ويكون مِن أهل الجنَّة؛ أبدًا، خالدًا فيها مُخلَّدًا.

أمَّا المقتصد: فهو الَّذي اقتصر على فِعْل الواجب، واقتصر على تَرْك المُحرَّم، ويفعل المكروه ولا يفعل المستحب.

هذا إذا اقتصر على فِعْل الواجب وتَرْك المُحرَّم: فإنَّه لا يناله عذاب؛ فهو مِن السُّعداء.

ولكنَّه مِن عباد الله مَن هو أرفع منه درجة (**وهُم السَّابقون بالخيرات**)؛ الَّذين يتقرَّبون إلى الله بـ (النَّوافل) بعد أداء الفرائض، ويتقرَّبون إليه بـ (تَرْك المكروهات بعد تَرْك المُحرَّمات)؛ هؤلاء هُم الَّذين يسبقون إلى الدَّرجات العُلا، وهُم أيضًا يتفاوتون.

فالمقصود: أنَّ هذا: طاعة الرَّسول الَّذي جاء به؛ أَمْرٌ واضح ليس فيه خفاء.

فمَن أطاعه في الجملة دخل الجنَّة.

في الجملة: بأنْ عَبَد الله ولم يشرك به شيئًا، وإنْ تَرَك بعض الواجبات وارتكب بعض المُحرَّمات فهو في الجنَّة، مآله إلى الجنَّة.

أمَّا إذا لم يُطِع وعصاه: فمِثل هذا يُقال: (إنَّه كافر)؛ لأنَّه ردَّ قول الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إمَّا جَحْدًا وإنكارًا، وإمَّا عنادًا وتَكَبُّرًا.

أمَّا طائع ومرتكب للمُحرَّم: فهذا لا يُقال: (إنَّه كافر ولا معانِد)، بل هو سوَّلت له نفسه وزيَّن له الشَّيطان؛ فوقع في المُحرَّم، وتَرَك بعض ما وَجَب عليه، وأَمْرُه إلى ربِّه جَلَّ وَعَلَا؛ إنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء أخذه، ثمَّ بعدما يُعاقبه بما يستحق يُكرمه بأنْ يُدخِله الجنَّة.

وقوله: (فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ): يعني أنَّ المصير بعد الموت إمَّا إلى الجنَّة أو إلى النَّار؛ فهذا مِن الفروع الَّتي يجب أنْ يُؤمَن بها.

فروع هذه المسألة (أنَّ الله خَلَقنا وتَعَبَّدنا): مِن فروعها ومِن واجباتها: أنْ يعلم بالجزاء، والجزاء يكون بعد الموت مباشرةً (بعضه)، ثمَّ يتَّصل هذا بـ (بَعْث الأبدان وتركيبها مع الأرواح تركيبًا لا يقبل المفارقة أبدًا)؛ فيتمُّ الجزاء هناك؛ فيكون إمَّا في الجنَّة وإمَّا في النَّار.

أَمَّا أوَّله: فيكون بعد الموت مباشرة؛ وهو نعيم القبر أو عذابه؛ هذا مِن الجزاء (جزاء الآخرة)، ولكنَّه أَمْر مِن أمور الآخرة.

ولهذا؛ الإنسان إذا مات قامت قيامته، قامت ساعته.

السَّاعة: اثنان:

- ساعة كبرى تعم الخَلْق كلِّهم (وهي النَّفخ في الصُّور).

- وساعةٌ خاصَّة لكلِّ إنسان؛ إذا مات قامت قيامته.

قال: (**والدَّليل: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ [المُزَمِّل]).

هذا فردٌ مِن أفراد الأدلَّة الكثيرة؛ الَّتي تدلُّ على أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا كلَّفنا وتَعَبَّدنا، وتكليفه لنا بواسطة الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و(**الإرسال**) **معناه**: أنْ يُكلَّف بإبلاغ أَمْر الله جَلَّ وَعَلَا، وأَمْر الله: هو الرِّسالة، أَمْره ونَهْيه: هو الرِّسالة؛ كما هو معلوم.

فـ(الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) رجلٌ حُرٌّ مُكلَّف؛ أكرمه الله جَلَّ وَعَلَا بخطابه بوَحْيه إليه، وكلَّفه بإبلاغه العِباد.

وسيأتي كيفيَّة معرفة الرَّسول، كيف نعرفه.

وقوله: (﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ [المُزَمِّل: ١٥]): هذا الخطاب يشمل النَّاس كلِّهم؛ جميع مَن على وجه الأرض؛ فأُرسِل إليهم الرَّسول، وإنْ كان الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن العرب ولسانه عربي، ولهذا صار الكتاب الَّذي أُنزِل عليه، والأوامر الَّتي أُرسلت إليه باللِّسان العربي، ولكن يجب على كلِّ أحد لا يعرف هذا اللِّسان: أنْ يتعلَّمه، أنْ يتعلَّم هذه اللُّغة حتَّى يتعرَّف على ما جاء به الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما خاطب الله جَلَّ وَعَلَا به خَلْقه لأجل معرفة أَمْر الله جَلَّ وَعَلَا ونَهْيه.

وقوله: (﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ [المُزَمِّل: ١٥]): يعني أنَّ الرَّسول يشهد علينا بأنَّه بلَّغنا؛ وهذا يكون يوم القيامة (الشَّهادة أمام الله جَلَّ وَعَلَا).

لأنَّ الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف]؛ لا بدَّ من سؤال الرُّسل، وسؤال المرسَل إليهم: (هل جاءكم الرَّسول؟ وهل بلَّغكم؟)؛ هكذا يُسألون.

إنْ أنكروا فيُسأل الرَّسول: (هل بلَّغتهم؟).

ورسولنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شاهد علينا؛ يشهد علينا، الله جعله علينا شاهدًا؛ كما ذكر الله جَلَّوَعَلَا في آياتٍ متعدِّدة؛ أنَّه يأتي أمام الله جَلَّوَعَلَا ويقول: (إنِّي بلَّغتهم).

وكان صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في المواقف - الَّتي تكون له - في اجتماع النَّاس يستنطقهم ويسألهم: (هل بلَّغتكم؟) فقالوا: (نعم) قال: «**اللَّهُمَّ اشْهَد، اللَّهُمَّ اشْهَد**».

قال هذا يوم عرفة، وقاله في غير عرفة، وقاله في كلِّ مناسبة؛ قاله إذا بلَّغ واجبًا وإذا نهى عن مُحرَّم، كما أنَّه لما نهى عن الغلول قال: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكم يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَة عَلَى رَأْسِهِ بَعِيرٌ لَهُ رغَاء؛ يَقُول: (يَا رَسُول الله؛ أَنْقِذْنِي) فَأَقُول: لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا؛ قَدْ بَلَّغْتُك**»، ثمَّ ذكر بقيَّة الأموال.

فالرَّسول يكون شاهدًا علينا.

أمَّا شهادته على مَن شاهدهم وعَايشهم: فهو يشهد عليهم بأنَّهم تَبَلَّغوا حيث وصل إليهم أَمْره ونَهْيه.

وأمَّا شهادته على بقيَّة الأُمَّة: فلأنَّه نشر ذلك وبلَّغ أصحابه، وكَلَّف أصحابه أنْ يُبلِّغوا مَن بعدهم، والَّذي بعدهم يُبلِّغون مَن بعدهم، إلى يوم القيامة.

وهذا الَّذي يقول الشَّيخ (أنَّه يجب علينا: العِلم والدَّعوة)؛ يعني التَّبليغ الَّذي كُلِّفنا به، هذا في العموم.

وقد يكون خصوصًا - كما سبق -.

وقد ذكر الله جَلَّوَعَلَا في القرآن: أنَّ الرُّسل شهداء على قومهم، كلُّ رسولٍ يكون شهيدًا على قومه.

وجاء تفصيل ذلك في أحاديث الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حتَّى إنَّه لمَّا ذكر أنَّنا نكون شهداء على النَّاس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

فهذه الأُمَّة تشهد للرُّسل بأنَّهم بلَّغوا، والرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يشهد علينا بأنَّه بلَّغنا، وشهادتهم

للرُّسل لِمَا تَبَلَّغوه مِن كتاب الله الَّذي جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقصَّ عليهم قصص الرُّسل بأنَّ نوح دعا قومه بـ(البيِّنات)، وجاءهم بالهدى فكذَّبوه؛ فيشهدون أنَّهم بلَّغ قومه.

وكذلك هود، وصالح، ولوط، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وغيرهم مِن الرُّسل الَّذين جاؤوا بالرِّسالات.

هذه الأُمَّة تشهد لهم بأنَّها تبلَّغت ذلك ممَّا جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المُزَّمِّل: ١٥]: كثيرًا ما يقرن الله جَلَّ وَعَلَا بين (رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وبين (موسى)، وكثيرًا ما يُردِّد عليه قصَّة موسى؛ لأنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ شبيهًا بـ(محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في دعوته وفي مزاولته النَّاس، وفي العذب الَّذي أُوذِي به، وفي البيِّنات الَّتي جاء بها.

ولهذا؛ لمَّا قال له الرَّجل الَّذي جاء ونَصَب نفسه ناصحًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - للغرور والشَّيطان -، جاء وقال له: (اعدل؛ فإنَّك لم تعدل)!!

فكيف يأمر الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعدل ويقول له: (إنَّك لم تعدل)؟!!

فلمَّا قال له هذا القول فهو قولٌ ليس سهلًا؛ فإذا لم يعدل الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمَن الَّذي يعدل؟!

ولهذا قال: «**وَيْلَك! لَقَدْ هَلَكْتَ؛ إِنْ لَمْ أَعْدِل فَمَنْ يَعْدِل؟!**».

وقال: «**يَأْمَنَنِي الله** جَلَّ وَعَلَا **وَلَا تَأْمَنُونِي؟!**» على المال!!

بسبب شيء مِن المال قَسَمه صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ غضب الرَّجل وقال: (اعدل؛ لِمَاذا تعطي فلانًا مائة مِن الإبل، وفلانًا مائة مِن الإبل، وفلان تعطيه كذا مِن الذَّهب وفلان تعطيه كذا مِن الذَّهب، والبقيَّة لا تعطيهم؟!)!!

والرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: أنا قاسم، ولست بمُعطِي، أنا أقسم بما أمرني الله جَلَّ وَعَلَا.

فهو يضع الشَّيء حيث أَمَره الله.

المقصود: أنَّه لمَّا قال هذه القَوْلة قال: «**رَحِمَ الله مُوسَى؛ لَقَدْ أُوذِي أَكْثَر مِمَّا أُوذِيت فَصَبَر**»؛ وهذا هو سرُّ كونه يقرن قصَّته بقصَّته وكتابه بالكتاب الَّذي جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حتَّى يتسلَّى بذلك، ويكون له فيه مُعتبَر.

(﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ [المُزَّمِّل]): هذا تمثيل، وإلَّا فـ (رسولنا) أُرسِل إلينا كما أُرسل إلى سائر الأُمم، والرِّسالة واحدة.

ولهذا؛ أخبر الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الرُّسل دينهم واحد.

وقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران:١٩].

وكلُّ رسولٍ جاء بـ (الإسلام).

قال: (**الثَّانِيَةُ**: أَنَّ اللهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ): هذا تفصيل للمسألة الأُولى، تفصيل لها وإلَّا فالمسألة الأُولى كافية؛ وإنَّما هو إيضاح وبيان فقط؛ لأنَّ عبادة الله لا تكون عبادة إلَّا إذا كانت خالصة ليس فيها شِرك ولا شيءٌ مِن الشِّرك.

ولكن يجب على المسلم: أنْ يعلم كيف يعبد ربَّه، ويعرف أنَّ العبادة هي التَّوحيد بـ (الإخلاص)، وأنَّ (الإخلاص) إذا فُقِد دَخَل الشِّرك لإرادة السَّيِّئات.

وأنَّ هذا لا يقبله الله جَلَّ وَعَلَا؛ فهذا مِن أعظم ما يجب أنْ يبحث عنه الإنسان (يعني معرفة كون العبادة خالصة لله جَلَّ وَعَلَا، وأنَّها لا تُقبَل إلَّا إذا كانت كذلك)؛ فالله لا يرضى إلَّا أنْ تكون العبادة له.

وإذا وقع الاشتراك فيها: فهذا هو الشِّرك الَّذي هو أعظم المحرَّمات، وحرَّم صاحبه على الجنَّة.

(أَنَّ اللهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ):

و(**العبادة**) سيأتي تفصيلها، ولكن هي كلُّ ما أَمَر الله جَلَّ وَعَلَا به على لسان الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما نهى عنه.

يعني يُترَك المَنهي خوفًا مِن الله، ويُفعَل المأمور طَلَبًا لثواب الله جَلَّ وَعَلَا وخوفًا مِن إنْ لم يفعل أنْ يُعاقَب.

يُفعَل المأمور طلبًا لثواب الله وخوفًا مِن عقابه، ويُترَك المحظور كذلك [٣].

---

(٣) نهاية المجلس الثاني.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

الثَّـانِيَـةُ: أَنَّ اللهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجِنّ].

الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُـهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المُجَادَلَة].

اعْلَمْ - أَرْشَدَكَ اللهُ لِطاعَتِهِ - **أَنَّ (الحَنِيفِيَّةَ) مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ.

وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّارِيَات]، **وَمَعْنَى (يَعْبُدُونِ)**: يُوَحِّدُونِ.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ: التَّوْحِيدُ؛ وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ: الشِّرْكُ؛ وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ؛ **وَالدَّلِيلُ**: قَوْلُـهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّسَاء:٣٦].

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعْمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١﴾﴾ [الفَاتِحَة]، وَكُلُّ مَا سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ.

قال الشارح وفقه الله:

تقدَّم أنَّ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر أنَّه يجب علينا تعلُّم أربع مسائل، والعمل بهنَّ.

وذكر أنَّها (العِلم، والعمل، والدَّعوة إلى العِلم إذا ما تعلَّم، والصَّبر على الأذى فيه).

وقلنا: إنَّ هذه مثل المقدِّمة لـ (الأصول)؛ و(الأصول) داخلة فيها؛ فهي مُجملة.

وكذلك هذه الثَّلاث مسائل الَّتي ذكرها.

هذه كلُّها تعود إلى مسألة واحدة؛ المسائل الثَّلاث تؤول إلى مسألة واحدة (وهي وجوب عبادة الله)، وحقوق العبادة ولوازمها.

فمَن عَبَد الله وَجَبَ عليه أنْ يترك الشِّرك؛ لأنَّ العبادة لا تصلح إلَّا بتَرْك الشِّرك مطلقًا، لا يمكن أنْ توجد عبادة إلَّا بـ (تَرْك الشِّرك).

ثمَّ لا يمكن أنْ تكون عبادة بموافقة الأمر واجتناب النَّهي إلَّا بـ (معاداة المشركين)، لا بدَّ؛ لأنَّ مَن يدَّعي أنَّه يحبُّ الله ثمَّ يوالي المشركين: فهذا كَذِب، لا يمكن أنْ يجتمعا هذا؛ فهذا مِن لوازم عبادة الله جَلَّ وَعَلَا.

أمَّا (الإخلاص) الَّذي عبَّر عنه بأنَّه (مِلَّة إبراهيم): فهذا شيء أصل، مِن الأصل (أنَّ العبادة لا بدَّ أنْ تكون بالإخلاص).

والمقصود: أنَّ هذه المسائل الثَّلاث تؤول إلى شيءٍ واحد؛ وهو (وجوب عبادة الله جَلَّ وَعَلَا).

وسبقت **الأُولى**: (أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا).

وأنَّ معنى ذلك: أنَّ الحُجَّة قامت علينا، هذا معناه.

معناه: أنَّنا خُلِقنا، ودلائل الخَلْق قائمةٌ بأنفسنا وبالشَّيء الَّذي يدور حولنا (مِن آيات الله الفِعليَّة، وآياته القوليَّة الَّتي يُرسِل بها الرُّسل، وآياته الخَلْقيَّة في الأنفُس وفي الآفاق)؛ فهي تُوجِب كون المعبود (هو الله) حقًّا، وألَّا يُعبَد إلَّا هو.

ولكن العبادة لا تكون إلَّا بما جاء به الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولهذا قال: (وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا): يعني أنَّه أمرنا ونهانا عن أشياء معيَّنة.

وفِعْل هذه المأمورات واجتناب المحظورات: هو التَّكليف بالعبادة؛ الَّتي تعبَّدنا الله جَلَّوَعَلَا بها.

أمَّا الثَّانية وهي قوله: (أَنَّ اللهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ): يعني أنَّ العبادة يجب أنْ تكون لـ (الله).

و(الشِّرك) هو السَّهم في الشَّيء.

إذا كان هناك شيء معيَّن وصار فيه شُركاء فلكُلِّ واحدٍ سهم منه.

فـ (العبادة) لا تُجعَل أسهُم؛ فلا يُجعَل سهمٌ منها لـ (الله)، وسهمٌ لـ (النَّبيِّ)، وسهمٌ لـ (المَلك)، وسهمٌ لـ (الوليِّ) – يعني (نصيب) –.

يجب أنْ تكون (العبادة) كلُّها لـ (الله) خالصة.

و(الشِّرك) الَّذي يقع مِن الإنسان على نوعين – كما هو معلوم –:

– نوعٌ أكبر؛ يجعل الَّذي يفعله – إذا مات عليه – خالدًا في النَّار، ميؤوسًا منه بأنْ يناله رحمةٌ مِن الله؛ هذا إذا مات على (الشِّرك)؛ لقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

ولقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧].

ولقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

وغير ذلك مِن الآيات الكثيرة؛ الَّتي تُبيِّن أنَّ المشرِك إذا مات مُشرِكًا أنَّه خالد في النَّار مهما كان، وإنْ كان عابدًا، وإنْ كان يصلِّي ويصوم؛ فإنْ مات مشركًا وإنْ كان عنده صلاة وصوم فهي لا تنفعه.

والنَّوع الثَّاني: شِركٌ أصغر؛ وهو كثير، يقع مِن النَّاس كثيرًا، ويُقصَد به: حُبُّ النَّفس، فكون الإنسان يحبُّ نفسه سيعمل أعمالًا يظهرها للنَّاس حتَّى يُثنوا عليه بها، حتَّى يمدحوه، حتَّى يحبُّوه، ويكون ذلك مِن حظِّ نفسه؛ فهو يعبد نفسه.

أو أنَّه يعمل أعمالًا مِن أمور الطَّاعات ويقصد بها أمور الدُّنيا؛ ليتحصَّل على شيءٍ مِن أمور الدُّنيا.

وهذا يختلف باختلاف ما يقوم في قلب الإنسان؛ قد يكون أكبر، وقد يكون أصغر.

ولكن الأصغر: جاء أنَّه يسير الرِّياء (يسيره) يعني (قليل)، قليل الرِّياء والحلف بغير الله، وقول العبد: (لولا الله وأنت)، (لولا كذا لكان كذا) وما أشبه ذلك مِن الألفاظ الَّتي فيها الاعتراض على القَدَر وعلى تدبير الله جَلَّوَعَلَا، وإحكامه، وإتقانه، وتصرُّفه؛ فإنَّ هذا نوعٌ مِن الشِّرك اللَّفظي.

وهو مِن الشِّرك الأصغر الَّذي لا يُخرِج الإنسان مِن الدِّين الإسلامي، ولكنَّه مع كونه أصغر هو مِن أعظم الكبائر – نسأل الله العافية –.

العبادة الَّتي أوجبها الله لا تكون إلَّا بـ(الإخلاص).

و(الإخلاص) معناه: أنْ يكون العمل خالصًا لله جَلَّوَعَلَا، ليس فيه شيءٌ مِن الرِّياء والشِّرك والشَّوائب الَّتي تُنقِّصه.

وقوله: (أَنَّ اللهَ لَا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ): هذا تفسيرٌ لـ(العبادة)؛ لأنَّ (العبادة) لا تكون عبادة شرعيَّة إلَّا إذا كان هكذا (إلَّا إذا كانت خالصة لله جَلَّوَعَلَا).

أمَّا (العبادة) في اللُّغة: فهي مأخوذةٌ مِن (الذُّلِّ، والخضوع).

قال: (ذَلَّ إذا عَبَد).

ولهذا يُقال: (طريقٌ مُعبَّد) إذا ذَلَّ لـ(وَطْء الأقدام) وصار مسلوكًا واضحًا (مُعبَّد).

فهو مأخوذٌ مِن (الذُّلِّ والسُّكون والخضوع)، (العبادة) مأخوذةٌ مِن هذا.

وهذه تحصل لله جَلَّوَعَلَا، وتحصل لغيره؛ (العبادة) بهذا المعنى تكون لله وتكون للمخلوقات.

ولكن (العبادة الشَّرعيَّة): هي أنْ تكون خالصة لله جَلَّوَعَلَا، ليس فيها شيءٌ لغيره.

وقوله: (وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن]): هذا فرض، وإلَّا القرآن كلُّه أدلَّة على هذا الأصل العظيم، مِن أوَّله إلى آخره:

أوَّله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة]: فهذا دليل على وجوب العبادة لله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّ (الحمد) أعظمه (العبادة)، أعظم (الحمد): أنْ تعبده بها، عبادة؛ فيجب أنْ تكون لله ربِّ العالمين.

والسُّورة كلُّها في العبادة:

- إمَّا عبادة الرُّبوبيَّة.

- وإمَّا عبادة الأسماء والصِّفات (عبادته بأسمائه وصفاته) كقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾ [الفاتحة].

- أو عبادته بالمعاملة الَّتي تجري مِن العبد؛ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة].

فكذلك سُوَر القرآن؛ فهي كلُّها في (التَّوحيد)، وفي ذِكْر (الجزاء عليه)، وذِكْر جزاء مَن تَرَك التَّوحيد وعقابه، وذِكْر ما قصَّه الله جَلَّوَعَلَا ممَّا فَعَل بـ(أهل التَّوحيد أو أهل الشِّرك) منذ أرسل أوَّل رسول (نوح) إلى أنْ خُتِمت الرُّسل بـ(محمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ).

فالواقع: أنَّ القرآن كلُّه في (التَّوحيد).

ولكن هنا يكون واضحًا في هذه الآية: (﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ۝١٨﴾ [الجِنّ])، وهي عاطفة على ما سبق وهو قوله: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ﴾ [الجن:١]، وكلُّ السُّورة عُطِفت على هذا.

(﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجِنّ: ١٨]): يعني أُوحِي إليَّ أنَّ المساجد لله هذا هو المعنى.

و(المساجد):

- إمَّا أنْ تكون (مواضع السُّجود) (الأماكن الَّتي بُنِيت للسُّجود فيها والصَّلاة) تكون لله: يجب أنْ تكون محلًّا للعبادة الخالصة لله جَلَّوَعَلَا، وألَّا يكون فيها شيءٌ لغير ذلك.

- أو أنْ تكون (المساجد): أعضاء السُّجود، يعني أنَّها لله: يجب أنْ تكون خالصةً لله، وألَّا يكون سجود العبد لأحدٍ مِن الخلق، لشيءٍ مِن الخَلْق.

(﴿فَلَا تَدۡعُواْ﴾ [الجِنّ: ١٨]): (الدُّعاء) هنا يُقصَد به: دعاء العبادة، وهو غالب ما في القرآن: يأتي دعاء العبادة.

<u>لأنَّ (الدُّعاء) ينقسم في القرآن إلى قسمين:</u>

- دعاء يُسمَّى (دعاء المسألة)؛ وهو السُّؤال لشيءٍ معيَّن؛ كقول الإنسان: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ [البقرة:٢٠١]: هذا دعاء المسألة.

- و(دعاء عبادة)؛ كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة].

وكقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠].

فهذه فُسِّرت بـ (دعاء العبادة)، وفُسِّرت بـ (دعاء المسألة).

وكلُّ عبادة تتضمَّن المسألة، ولا بدَّ.

كلُّ دعاء عبادة يتضمَّن المسألة، وكذلك المسألة تتضمَّن الذُّلَّ والخضوع والحاجة..

.. العابد يعبد حتَّى يتحصَّل على ما ينفعه مِن المعبود، ويدفع بعبادته ما يضرُّه ويخافه ويرهبه مِن المعبود الَّذي يملك ذلك.

ولا بدَّ أنْ يكون المعبود مالكًا للمرجو، ومالكًا لدَفْع المرهوب المَخُوف، وإلَّا تكون عبادته ضلال؛ كما بَيَّن الله جَلَّوَعَلَا للمشركين أنَّ عبادتهم ضلال ...

وقوله: (﴿أَحَدًا﴾ [الجِنّ:١٨]): نكرة؛ جاءت في سياق النَّهي، تكون عامَّة؛ ولهذا شَمِلت الخَلْق كلَّهم، ألَا يجوز أنْ يُدعَى غير الله جَلَّوَعَلَا؛ فهذا مِن خصائص الله.

ومعنى ذلك: أنَّ الله خَلَق العِباد وأَلْزمهم بحقِّ الله.

وحقُّه: العبادة؛ فيجب أنْ تكون خالصةً له.

فإنْ قُدِّر أنَّ أحدًا منهم يجعل مِن العبادة شيئًا لغيره: فهو الشِّرك الَّذي أخبر الله جَلَّوَعَلَا أنَّه لا يغفره.

وقوله: (**الثَّالِثَةُ**: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لَا يَجُوزُ لَهُ مُوَالَاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ).

هذه مِن لوازم العبادة، فهذه المسألة مِن لوازمها، لازمة للمسألة الأُولى، وليست مسألة مستقلَّة تكون أصلًا (فنقول مثلًا: الأصل الأوَّل: عبادة الله، والأصل الثَّاني: عدم الشِّرك، والأصل الثَّالث: عدم موالاة الكفَّار)؛ نقول: هذه المسائل الثَّلاث كلُّها تؤول إلى شيءٍ واحد (وهي إلى عبادة الله وحده) (أنْ يُعبَد وحده).

ولا توجد عبادة الله إلَّا بـ (تَرْك الشِّرك).

ولا يمكن أنْ تكون العبادة عبادة صحيحة إلَّا بـ (معاداة أعداء الله، وموالاة أولياء الله).

قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران:٢٦]: هل بقي في هذا للخَلْق شيء؟! الآية ما تركت شيئًا أبدًا للخَلْق.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران]؛ فأصبح الأمر كلُّه بـ (يد الله جَلَّ وَعَلَا).

فإنْ أُعطِي أحدٌ مِن الخَلْق شيئًا: فهو مِنَّة مِن الله وفَضْل، وسوف يُنزَع منه ويُعطَى غيره، لا يستقر عنده.

المال الَّذي يكتسبه الإنسان بكَدِّه وكَدْحه وعمله: فضل مِن الله ونعمة؛ لأنَّ الله قوَّاه ويسَّر له الأسباب ثمَّ بعد ذلك سوف يتركه للوارث، وربَّما وَكَله مَن يستعين به على معصية الله، ولا يحمد الجامع له.

المقصود: أنَّه يُسلَب ما أُعطِي

إنَّ الأمر كلّه لله؛ يرجع إلى الله جَلَّ وَعَلَا، هو مالك المُلك، وسواءً كان مُلكًا تامًّا – نسبيًّا؛ لأنَّه لا يوجد مُلك تام في الدُّنيا أبدًا – أو كان ناقصًا.

ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران:٢٨].

دلَّت الآية على أنَّ هذا مِن تمام عبادة الله (مِن لوازمها)؛ **لازم عبادة الله**: ألَّا يتَّخذ العابد الكافرَ وليًّا له.

و(**الموالاة**): هي المحبَّة، والنُّصح (إبداء النَّصيحة)، والموافقة، وكون الإنسان يكون معه.

أمَّا إذا جاءت (المناصرة) (النُّصرة): فهذا يُسمَّى (تَوَلِّي)، وهذا هو ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١] يعني (فهو كافر مثلهم).

(التَّولِّي): الَّذي يكون فيه مناصرة؛ يُناصَرون إمَّا بـ(المال) أو بـ(السِّلاح) أو بـ(النَّفس).

فهذه كُفرٌ بالله جَلَّوَعَلَا؛ إذا كان الفاعل لذلك مسلمًا فقد ارتدَّ عن الإسلام – نسأل الله العافية –؛ لقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١].

وقوله: (وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ): يعني لو كان هذا الَّذي يتولَّاه وهو كافر (ابنه أو أباه): هذا هو أقرب القريب (الابن والأب)، لو كان أبوه أو ابنه فتولَّاه مع كُفره فإنَّه يكون محاربًا لله ولرسوله ومنفيٌّ عنه الإيمان (ليس بمؤمن، لا يكون مؤمنًا).

قال: (وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢] إلى آخر الآية.

ومعنى قوله: (﴿لَّا تَجِدُ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): يعني لا يوجد.

لا يوجد مَن يؤمن بالله ويوادّ المشركين (يواد مَن حادَّ الله ورسوله).

يعني أنَّ الإيمان لا يجتمع في قلب إنسان مع موالاة الكفَّار.

(﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]):

محادَّة الله: هي أنْ يكون الله في حد وهذا في حد، الله في حد والمُحاد له في حد.

معنى أنَّه في حَد: أنَّ الله يأمر بهذا وينهى عن هذا والمُحاد يفعل المَنهي عنه ويترك المأمور به؛ هذه هي حقيقة المحادَّة، يعني أنْ يكون غير موافقًا لله جَلَّوَعَلَا فيما يأمر به ولا فيما ينهى عنه، يخالفه.

فإذا كان كذلك فهو مُحادٌّ لله.

وإذا ظَهَر ذلك وَجَبت مُعاداته على المؤمنين ولو كان أقرب قريب أو كان أبوه أو أُمُّه؛ بدليل هذه الآية.

(﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): يعني لا يحصل الإيمان في قلوبهم مع موادَّة الكافرين.

(﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]):

وقوله: (﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): إشارة بأنَّه لا نصيب لهم في اليوم الآخر؛ لأنَّهم لم يُعدُّوا شيئًا له وقد فُقِد الاستعداد له بكونهم والَوا الكفَّار، ولا بدَّ أنْ يكون في ذلك معاداة للمؤمنين؛ لأنَّ موالاة

الكافرين تقتضي معاداة المؤمنين؛ فتنعكس القضيَّة، تصبح القضيَّة معكوسة تمامًا، وهذه هي المحادَّة.

وقولـه: (﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): هنـا كلمـة (أو): للتَّنويع.

و(الآباء) بُدِئ بهم للقُرب، ثمَّ (الأبناء)؛ وهؤلاء هُم أقرب شيء للإنسان، وقد يكون (الابن) أكثر محبَّة مِن (الأب)، فقد يحبُّ ابنه أكثر مِن محبَّة أبيه، ومع ذلك جُعِل هذا مع هذا؛ يعني لأجل أنْ يتبيَّن أنَّه لا يحصل الإيمان إلَّا بالتَّبرِّي مِن الكافر وإنْ كان (أب للإنسان أو ابنه)، وأنَّه لا عُذْر له في تَوَلِّي مَن كان كافرًا لكونه مِن أقربائه (ابن أو أب).

أمَّا (الإخوان والعشيرة): فهُم أبعد مِن ذلك، ولكن مع ذلك نُصَّ عليهم؛ ليُبيِّن أنَّ الأمر شديد في هذا.

وقوله: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): إشارة إلى الصَّحابة الَّذين حصل منهم في بدر خلاف ما ذُكِر هنا؛ منهم: مَن قَتَل أباه، ومَن قَتَل قريبًا؛ لأنَّه كان كافرًا.

فأُشير إليهم بـ(هؤلاء المؤمنين) الَّذين قتلوا أقربائهم يوم بدر وهُم أقربائهم؛ لأنَّهم أهل كُفْر.

وهذا مِن أعظم المعاداة (كونه يقتل)؛ إمعانًا في مُعاداته.

وكذلك اتِّباعًا لطاعة الله جَلَّوَعَلَا ومرضاته.

(﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): يعني الصَّحابة الَّذين فعلوا القتل لأقربائهم.

(﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): (الرُّوح) هنا أكثر مِن كونه يكون النَّصر، ليس النَّصر فقط؛ الرُّوح الَّذي يكون مِن الله، .. (الإيمان)؛ الإيمان الَّذي يثبت في القلب ولا يتزعزع، ويصبح يُقدِم على قَتْل أبيه وابنه وأخيه إذا كان كافرًا؛ طاعةً لله جَلَّوَعَلَا.

هذا تحلَّى به الصَّحابة، تحلَّوا بهذه الصِّفة؛ ولهذا (الإشارة) إليهم في هذا.

وليست في هذه القصَّة فقط؛ في جميع أوقاتهم وحالاتهم كانت هذه صفتهم، في بعض المغازي كان مع الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منافقون؛ منهم: (عبد الله بن أُبَيّ بن أَبِي سَلول) - في غزوة المُرَيْسِيع - المعروف؛ فنزلوا في مكان كان فيه ماء قليل، فذهب غلمان مِن الصَّحابة، واحد مِن المهاجرين وواحد

مِن الأنصار ليستقوا فتزاحموا على الماء.

الماء شحيح (قليل)؛ فتزاحموا عليه، فقال المهاجري: (ياللمهاجرين)، وقال ذاك: (ياللأنصار): يعني دعوى جاهليَّة.

فسمع ذلك (عبد الله بن أُبَيّ) فقال: (ما مَثَلنا ومَثَل هؤلاء إلَّا كقول القائل: سَمِّن كلبك يأكلك، لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل).

ويقصد بـ(الأعز): نفسه – قبَّحه الله – هو وقَبِيلُه.

ويقصد بـ(الأذلّ): رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!

وصار يقول لأصحابه: (ألم أَقُل لكم: لا تنفقوا عليهم حتَّى ينفَضُّوا ويرجعوا؟!) يعني لا تُقدِّموا للمهاجرين شيئًا؛ الشَّيء الَّذي ذكره الله جَلَّ وَعَلَا.

فلمَّا بلغ ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَر بالرَّحيل؛ وكانت عادته هكذا؛ إذا حصل شجار أو نزاع لا يستقر، يمشي حتَّى لا يتمادى هذا الشَّيء، حتَّى ينقطع، هذا مِن العلاج الَّذي كان يصنعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويفعله.

فهو لا يريد أنْ تنتشر الفِتَن، يريد أنْ يُقلِّل الفساد مهما كان، بأي وسيلة وبأي طريقة.

ثمَّ بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك فنزل القرآن.

وكان ابنه (عبد الله) أيضًا، اسمه (عبد الله) وأبوه (عبد الله)؛ مِن خيار الصَّحابة وأفاضل الصَّحابة.

فسمع أنَّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيقتل (عبد الله بن أُبَيّ) فجاء إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: (يا رسول الله؛ هل تقتل أبي؟) قال: «**لا، ومَنْ قَالَ لَكَ؟**» قال: (إذا كنت تريد أنْ تقتله فمُرني فأقتله؛ إنِّي أخشى أنْ يقتله رجل مِن المسلمين فما أصبر أنْ أرى قاتل أبي وأنظر إليه وأخشى أنْ أقتله فأكون مِن أهل النَّار)، قال: «**لا، وَلَكِنْ نُحْسِن صُحْبَتَه**».

فمضى، فلمَّا قاربوا إلى المدينة ذهب الابن (عبد الله) هذا، و.. سيفه ووقف لأبيه وقال له: (والله ما تدخلها حتَّى تشهد على نفسك أنَّك أنت الأذل وأنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الأعزّ)، هكذا الابن كيف يصنع بأبيه..

فشَهِد، فقد رأى السَّيف، وإنْ لم يشهد أنَّه الأزل لن يدخلها.

المقصود: أنَّ الصَّحابة – رضوان الله عليهم – (﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]) بإخلاص وصِدْق وثبات على الحقِّ أمدَّهم به، ومحبَّةً له للحقِّ وبُغضًا وكراهة للباطل، وثباتًا على ذلك.

وهذا هو الرُّوح الَّذي يكون مِن الله جَلَّوَعَلَا للعبد.

فهُم المقصودون في هذه الآية: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]).

ثمَّ ذكر ما يجزيهم به في آخرها: (﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]).

الجنَّات: معروف أنَّها الجنَّة (البستان الَّذي تغطَّت أرضه بالأشجار والزَّرع)؛ تُسمَّى جنَّة، وفيه الأنهار؛ لأنَّه مِن (الاجتنان) وهو (السِّتر)، سُتِرت أرضها (الجنَّة) بالأشجار والزُّروع.

وكلُّ أرض سُتِرت بـ (الزَّرع والشَّجر) تُسمَّى (جنَّة).

وإذا كانت الأنهار تجري تحتها: فهذا زيادة وَصْف وخير.

والجنَّة الَّتي وَعَدها الله جَلَّوَعَلَا المؤمنين: لا أحد يعرف عنها شيئًا بـ (المشاهدة)؛ وإنَّما يُعرَف عنها بـ (الخبر).

و(الخبر) ليس كـ (المعاينة)؛ لأنَّه ليس عندنا شيءٌ مِن جنسها؛ لا يوجد عندنا في الدُّنيا شيءٌ مِن جنس الجنَّة الَّتي وُعِدها المؤمنون حتَّى يمكن أنْ يعرفوها أو يعرفوا شيئًا مِن صفاتها معرفةً حقيقيَّة.

يقول ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (ليس عندكم في الدُّنيا ممَّا في الجنَّة إلَّا الأسماء)؛ أسماء: يعني (عنب، نخل، حُور، أشجار، أنهار، لبن، خمر) مجرَّد أسماء، أمَّا الحقائق: فلا؛ لا في المذاق، ولا في المنظر، ولا في المشموم، ولا في غير ذلك.

ولهذا؛ أهل الجنَّة ليس عندهم فضلات أبدًا؛ لا يوجد بول ولا يوجد غائط، يأكلون ويذهب ..؛ لأنَّه ليس فيه فضلة؛ لطِيبه وحُسْنه؛ ليس فيه شيء يكون فاسدًا أبدًا؛ إنَّما هو غذاء كامل، كلُّه غذاء.

والله جَلَّوَعَلَا يقول في آيةٍ ذكرها جزاءً لمَن تتجافى جنوبهم عن المضاجع، يدعون ربَّهم خوفًا وطمعًا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]؛ فـ(نَفْس) هنا: يدخل فيها (الملائكة، والأنبياء، وغيرهم)؛ فلا أحد يعلم ذلك؛ إنَّما هي مخبوءة لهم.

ولمَّا قام الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يصلِّي صلاة الكسوف في هذا المسجد (مسجده صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ) مُثِّلت له الجنَّة والنَّار في نفس المسجد، فسار يتقدَّم وتقدَّموا خلفه؛ لأنَّه ما كان بجوار الحائط، كان في وسط المسجد، لقلَّة المصلِّين، لم يكونوا كثيرين، فتقدَّم فتقدَّمت الصُّفوف خلفه، ثمَّ تأخَّر، فتقهقهر إلى الخلف وصارت الصُّفوف تتقهقر، وهُم لا يعرفون ما السَّبب.

فلمَّا قضى الصَّلاة خطب خطبته المعروفة وقال: «**لَقَدْ عُرِضَت عَلَيَّ الجَنَّة وَالنَّار**» أو قال: «**مُثِّلَت لِي الجَنَّة وَالنَّار**» دون هذا الحائط؛ «**فَرَأَيْتُ فِي النَّارِ (عَمْرو بنَ لُحَيّ الخُزَاعِي) يَجُرُّ قُصْبَه؛ لِأَنَّهُ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِب وَحَمَى الحَامِي، وَغَيَّرَ دِينَ إِبْرَاهِيم، ورَأَيْتُ فِيهَا امْرَأة فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا؛ لَا هِي أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِي تَرَكَتْهَا تَأْكُل مِنْ خَشَاشِ الأرض، رَأَيْتُهَا تَخْمِشُهَا**» تخمش وجهها وهي في النَّار.

«**وَعُرِضَت الجَنَّة فَلَمْ أَرَ مَنظرًا كَاليَوْم قَط، وَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْهَا قَطْفًا لَمَّا رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْت، ثُمَّ بَدَا لِي أَلَّا أَفْعَل، وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُم مِنْه مَا بَقِيت الدُّنْيَا**».

و(**القَطْف**): عنقود عنب.

لو أخذه لبقيت الأُمَّة كلها تأكل منه وهو باقٍ، لا ينتهي.

هذا مِن ناحية البقاء؛ لأنَّ الَّذي في الجنَّة لا يفنى.

«**وَحِينَمَا رَأَيْتُمونِي تَقَهْقَرْت خَشِيت مِنْهَا حَتَّى قُلْت: (يَا رَبِّ؛ وَأَنَا فِيهم؟!) خَشِيت أَنْ تَأْتِي عَلَيْنَا**».

فالمقصود: أنَّ الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**وَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُم مِنْه مَا بَقِيت الدُّنْيَا**» (عنقود عنب)؛ **فمعنى ذلك**: أنَّ هذا خلاف المعهود.

قال: (﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): جاء في الحديث: أنَّها أنهار الجنَّة تجري بلا أخدود، الحديث رواه الإمام أحمد (تجري بلا أخدود).

و(الأخدود): هي الجوانب الَّتي تُوضَع لمَنع الماء مِن أنْ ينتشر.

إمَّا يحفر الماء لنفسه ويعمل أخدودًا، أو تُعمَل له.

وقوله: (﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): الخلود: هو الدَّوام الَّذي لا ينتهي ولا ينقطع، مع هذا النَّعيم خالدين فيها.

ففي هذا تمام السَّعادة، وتمام الحياة، يعني أَمِنوا الموت، وأَمِنوا الألم والعذاب وتنعَّموا، هل بعد هذا شيء؟!

نقول: نعم، بعده شيء أفضل مِن هذا؛ وهو قوله: (﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): هذا أعلى ما في الجنَّة مِن النَّعيم: (رضا الله عنهم)، كونه رضي عنهم ورضوا عنه.

أمَّا رضاهم عنه: فليس عجيبًا؛ لأنَّ الله هو ذو الفضل، هو الَّذي بدأ بالإحسان والفضل وختم به، فضله على العبد لا يُحصَى، فتفضَّل بالإيمان أنْ جَعَل العبد مؤمنًا، ثمَّ تفضَّل بجزائه، والجزاء هو الجنَّة.

ولكن معروف أنَّ مذهب أهل السُّنَّة (وهو الحقُّ الَّذي دلَّ عليه القرآن): أنَّ التَّنعُّم بالجنَّة ليس بالأكل والشُّرب والمنكح والملذَّات البدنيَّة الَّتي تؤكَل وتُحسّ، ليست في هذه فقط.

أعظمها: الالتذاذ بالله جَلَّ وَعَلَا بالنَّظر إليه؛ هذا هو أعلى النَّعيم: النَّظر إلى الله؛ ولهذا جاء قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

(الزِّيادة) تكون على الحُسنى: أفضل منها.

الزِّيادة: هي النَّظر إلى وجه الله جَلَّ وَعَلَا.

ويقول جَلَّ وَعَلَا في أعدائه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين].

يقول العلماء: هذا الحجاب أشدُّ مِن العذاب؛ أشدُّ أنواع العذاب: الحجاب؛ فهذا مِن أشدِّ العذاب، وهو يُقابِل ما يحصل للمؤمنين مِن نظرهم إلى ربِّهم جَلَّ وَعَلَا.

وهذا يتفاوتون فيه تفاوتًا عظيمًا؛ منهم: مَن ينظر إلى ربِّه في أوَّل النَّهار وآخره؛ لأنَّ أهل الجنَّة ما عندهم ليل ونهار، ولا عندهم شمس ولكن مع ذلك يعرفون اللَّيل والنَّهار، ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:٦٢].

فجاء أنَّ منهم مَن ينظر إلى ربِّه جَلَّ وَعَلَا بكرةً وعشيًّا؛ وهذا هو أعلى أهل الجنَّة.

ومنهم: مَن ينظر إليه في كلِّ جمعة، كلُّ جمعة مرَّة.

وقوله: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): يعني الصَّحابة الَّذين ذُكِر أنَّهم كُتِب في قلوبهم الإيمان، وأُيِّدوا برُوحٍ مِن الله.

وكلُّ مَن عمل عملهم فإنَّه يكون له هذا الوعد الكريم إلى يوم القيامة.

(﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المُجَادَلَة: ٢٢]): ولا يكون مِن حِزب الله إلَّا إذا انحزب وتميَّز عن حِزب الشَّيطان.

أمَّا إذا كانت الأمور متداخلة: فإنَّه يكون فسادٌ في الأرض، يكون فسادٌ عظيم عريض؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا لمَّا ذكر (أنَّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض، وأنَّ الكافرين بعضهم أولياء بعض) قال: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣]: يعني إلَّا يقع هذا منكم (يعني معاداة أعداء الله، وموالاة أولياء الله) تكن الفتنة والفساد الكبير العظيم.

ثمَّ قال: (اعْلَمْ - أَرْشَدَكَ اللهُ لِطاعَتِهِ -): هذا كلُّه مقدِّمات، **والظَّاهر**: أنَّ هذا ليس مِن كلام الشَّيخ إلَّا..، ليس في الواقع هذا الشَّيء المرتَّب، يجوز أنْ يكون هذا مِن جَمْع بعض تلامذته عندما كان يتكلَّم ويُقرِّر المسألة؛ لأنَّها ليست هذه (الأصول) الَّتي ستأتي؛ وإنَّما هي كلُّها أصلٌ واحد؛ وإنَّما هي مقدِّمة لـ (الأصول الثَّلاثة).

سبق أنْ قلنا: إنَّ الأصول الثَّلاثة جاءت مُجملة.

وكذلك جاءت مُجملة في المسائل الأُولى إجمالًا، ثمَّ سيأتي التَّفصيل؛ لأنَّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَضَع هذه الرِّسالة لعامَّة المسلمين (للعوام) وليس لـ (طَلَبة العِلم).

أمَّا هذا الكلام المُجمَل: يناسب طلبة العِلم؛ الَّذين يعرفون الإجمال والتَّفصيل، ويعرفون الوسائل الَّتي يعود بعضها إلى بعض.

وهنا مِثله أيضًا؛ لأنَّه لا يزال الآن في (الإجمال).

(اعْلَمْ - أَرْشَدَكَ اللهُ لِطاعَتِهِ -): هذا دعاء؛ لأنَّ المُخاطَب الَّذي أُمِر بالعِلم..، والعادة: أنَّه إذا كانت المسألة تحتاج إلى فِكْر وإلى نَظَر يُقال هذا القول: (اعلم)؛ حتَّى يتنبَّه السَّامع أنَّ هذا يحتاج إلى كَدٍّ

ذِهْن، ويعرف ذلك.

(أَنَّ (الحَنِيفِيَّةَ) مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ): فما الفرق بين هذا وبين قوله: (الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا؛ فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ)؟! فلا فَرْق بين هذا وهذا؛ فالمسألة واحدة؛ فهو تكرار.

و(الحنيفيَّة) مأخوذةٌ مِن (الحَنَف).

و(**الحَنَف**): هو العدول والميل قصدًا عن كلِّ دين إلى دين الله الَّذي أَمَر الله جَلَّوَعَلَا به، وهذا هو دين الرُّسل كلِّهم؛ كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]: هذا دين الرُّسل كلِّهم.

ومقصوده: أنَّ الإخلاص الَّذي هو خلوص العبادة لله: أنَّه هو الَّذي أُمِرنا به، وهو الَّذي كُلِّفنا به، وسبق هذا، فيكون ذلك مُكرَّرًا (أنْ تعبد الله مخلصًا له الدِّين).

وما أكثر الآيات الَّتي جاءت بهذا! ما أكثرها!

كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ ۝٣﴾ [الزمر]: يعني إذا لم يكن (الدِّين) خالص: فليس لـ (الله).

الله أغنى الشُّركاء عن الشِّرك.

إذا جُعِل في العبادة شيئًا لغيره تُرِكت، تَرَكَ العبادة، تَرَكَها لذلك الغير؛ لأنَّه غنِيٌّ كريم جَلَّوَعَلَا.

فلا بدَّ أنْ يكون الدِّين خالصًا.

ثمَّ قال بعد هذا: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِى ۝١٤﴾ [الزمر].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ﴾ [البينة:٥]، والخطاب لمَن؟

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾ [البينة].

لأنَّ كلّ الَّذين جاءتهم الأوامر، كلُّهم، ثمَّ هو لنا، نحن المقصودون به.

فـ(الإخلاص) هو دين الله الَّذي لا يقبل الله غيره.

وإذا لم يكن خالصًا فلا يخلو:

- إمَّا أنْ يكون مردودًا أصلًا.

- وإمَّا أنْ يكون ناقصًا إذا شابه شيءٌ مِن الرِّياء اليسير الَّذي لا يبطله، يكون أصغر.

ولكن الأدلَّة تدلُّ على أنَّ العمل إذا شابته شائبة الرِّياء: أنَّه مردود، وأنَّه لا يُقبَل.

والآيات في ذِكْر الإخلاص كثيرة.

و(**الإخلاص**) **معناه**: صِدْق النِّيَّة، وعزيمة القلب في العمل أنْ يكون لله وحده، ولا يكون له فيه شيء لغير الله جَلَّوَعَلَا، ويصبح الإنسان في سِرِّه وعلانيَّته سواء مِن ناحية العمل.

فإذا صار مع النَّاس كان نشيطًا وأدَّى الأعمال بنشاط، وإذا غاب عنهم كَسِل: فليس الإخلاص هكذا.

الإخلاص: أنْ يكون في مَغِيبه مِثله في مَحْضره؛ يعني لا يتأثَّر بالنَّاس ولا يؤثِّرون عليه، ولا يبالي بهم مِن ناحية العبادة؛ لأنَّه يعلم يقينًا أنَّهم لا ينفعونه ولا يضرُّونه، وهو لا يعمل لهم؛ يعمل لربِّه جَلَّوَعَلَا.

ولو مُدِح وأُثنِي عليه ما زاده ذلك شيئًا؛ لأنَّه يعرف نفسه أكثر مِن غيره.

ولو قُدِح فيه ما تأثَّر أيضًا؛ بل ربَّما استأنس بالقدح؛ وذلك لأنَّه في الواقع يكتسب أجرًا ليس مِن نفسه، وليس مقصده: الظُّهور أمام النَّاس والرِّفعة والتَّرفُّع على عِباد الله؛ **مقصده**: أنْ يؤدِّي عملًا لله جَلَّوَعَلَا يكون راضيًا عنه به؛ هذا مقصوده: أنْ يرضي ربَّه فقط.

ومع ذلك لا يجوز أنْ يزدري عِباد الله، لا يجوز أنْ يترفَّع عليهم، لا يجوز أنْ يدعوه ذلك إلى احتقارهم أو تنقُّصهم؛ بل يؤدِّي حقَّ ربِّه وحقَّ عِباد الله عليه، يؤدِّي هذا وهذا؛ لأنَّ المؤمن له على أخيه حقوق.

فالمقصود: أنَّ الإخلاص – الَّذي هو مِلَّة إبراهيم – هو دين نبيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الَّذي جاء به صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والله لا يقبل مِن العمل إلَّا ما كان خالصًا لله.

قال: (وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ)، (وَخَلَقَهُمْ لَهَا) يعني لهذه المِلَّة الحنيفة؛ (كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّارِيَات]).

معنى (﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّارِيَات]): أنَّه خَلَقهم لتكون منهم العبادة، لتحصل منهم العِبادة، يعني فَعَل جَلَّوَعَلَا الخَلق، الإيجاد والإظهار مِن العدم إلى الوجود على هذه الصِّفة، وأعطاهم ما يلزم لخَلْقهم (يعني لحياتهم).

والثَّانية: طلب أنْ تكون منهم: الَّتي هي العِبادة: (﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّارِيَات]).

وهنا وُجِّه الأمر لـ (الجنِّ والإنس) لأنَّهم المكلَّفون، لأنَّهم العقلاء.

وقُدِّم (الجِنُّ) هنا على (الإنس): يُقال: لِقِدَمهم في الوجود، وَٱللَّهُ أَعْلَمُ، أنَّهم أقدم مِن (الإنس) في الوجود.

وقال: لأنَّ (الجِنّ) غير مرئيِّين؛ فاقتضى ذلك (الإيمان بهم مِن الإنس)، أنْ يؤمنوا بذلك؛ حتَّى لا يتطرَّق إلى أحدٍ ممَّن يظن بعض الظُّنون أنَّهم غير مكلَّفين؛ فهُم مكلَّفون ومُجَازون كجزاء الإنسي، ومنهم المؤمنون، ومنهم الكافرون، ومنهم الشَّياطين، ومنهم البررة، وهُم ذرِّيَّة الشَّيطان، ذرِّيَّة إبليس، فذُرِّيَّته منهم المؤمنون.

فالمقصود: أنَّ هذه الآية أشكلت على كثيرٍ مِن المتكلِّمين إشكالًا عظيمًا، وما تخلَّصوا منها؛ حتَّى صار هذا الإشكال مُربِكًا مع أنَّها واضحة وظاهرة، ولكن إذا أراد الله جَلَّوَعَلَا عمى قلب إنسان فإنَّه لا يملك له مِن دون الله شيء.

ووجه الإشكال الَّذي استشكلوه: يقولون: إنَّه قال: (﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّارِيَات]): فأخبر أنَّه خَلَقهم للعبادة، والواقع: أنَّ أكثرهم لا يعبد؛ فأين الخبر؟ هل خبر الله يتخلَّف؟!

فجاءت الإشكالات مِن هنا.

فيُقال في الجواب عن هذا: أنَّه ليس المقصود: الإخبار بعبادتهم كما أخبر بخَلْقهم؛ **وإنَّما المقصود**: أنَّه خَلَقهم وهيَّأهم للعبادة وأمرهم أنْ يعبدوه وأنْ توجد العبادة منهم؛ حتَّى يمكن أنْ يُجزَوا.

أمَّا لو كانوا مرغمين على العبادة كإرغامهم على الخَلْق: فأيُّ فائدةٍ في جزائهم؟!

ولهذا يقول علماء أهل السُّنَّة: إنَّ هذه تدلُّ على الحكمة مِن الخَلْق: أنَّ الله خَلَق خَلْقه لحِكمة؛ وهي (أَمْرهم للعبادة)؛ فيكون نظير هذه الآية: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة].

يقول (علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وغيره في تفسيرها: يعني لا يُؤمَر ولا يُنهى؛ فـ(يُترَك سُدى): لا يُؤمَر ولا يُنهى، يعني لا يُكلَّف بعبادة الله جَلَّ وَعَلَا.

فهو خُلِق للأمر والنَّهي، والعبادة هي الأمر والنَّهي.

وإذا جاءت ذِكْر العبادة: فالمقصود بها: (التَّوحيد)؛ لأنَّه لا تُقبَل عبادة إلَّا إذا كانت خالصة لله جَلَّ وَعَلَا.

(**وَمَعْنَى (يَعْبُدُونِ): يُوَحِّدُونِ**): يعني يريد أنْ يُبيِّن هذا: أنَّ العبادة هي التَّوحيد.

ثمَّ قال: (**وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ: التَّوْحِيدُ**): يعني أنَّه آكد المأمورات وأعظمها.

وضدُّه كذلك: (**أَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ**).

ولا يمكن أنْ يوجد (توحيد) إلَّا بـ(اجتناب الشِّرك)؛ هذا أَمْرٌ لازم.

ولهذا؛ يقول جَلَّ وَعَلَا في الآية الَّتي في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٥] (٤).

---

(٤) نهاية المجلس الثالث.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ: التَّوْحِيدُ؛ وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ.

وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ: الشِّرْكُ؛ وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ؛ **وَالدَّلِيلُ**: **قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ﴾ [النِّسَاء:٣٦].

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟

فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ.

وَالدَّلِيلُ: **قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١﴾ [الفَاتِحَة]، وَكُلُّ مَا سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ العَالَمِ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ.

وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غَافِر:٥٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ [فُصِّلَت].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأَعْرَاف].

وَ(الرَّبُّ): هُوَ المَعْبُودُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَى: (الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلعِبَادَةِ).

وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا؛ مِثْلُ الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ؛ وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا = كُلُّهَا للهِ تَعَالَى.

وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن].

فَمَنْ صَرَفَ مِنْها شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون].

وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ».

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غَافِر].

وَدَلِيلُ (الخَوْفِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آلِ عِمْرَان].

وَدَلِيلُ (الرَّجَاءِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكَهْف].

وَدَلِيلُ (التَّوَكُّلِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المَائِدَة]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطَّلَاق:٣].

وَدَلِيلُ (الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالخُشُوعِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء].

وَدَلِيلُ (الخَشْيَةِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة:١٥٠].

وَدَلِيلُ (الإِنَابَةِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزُّمَر:٥٤] الآيَةَ.

وَدَلِيلُ (الاسْتِعَانَةِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفَاتِحَة]، وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».

وَدَلِيلُ (الاسْتِعَاذَةِ):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفَلَق].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾﴾ [النَّاس].

وَدَلِيلُ (الاسْتِغَاثَةِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩].

وَدَلِيلُ (الذَّبْحِ):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] الآية.

وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ».

وَدَلِيلُ (النَّذْرِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان].

قال الشارح وفقه الله:

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: (وَمَعْنَى (يَعْبُدُونِ): يُوَحِّدُونِ): يعني أنَّ (العبادة) شرعًا (الَّتي أَمَر الله جَلَّ وَعَلَا بها): أنْ تكون خالصة لله، ليس فيها شيءٌ لغيره.

فإنْ كان فيها شيءٌ لغير الله جَلَّ وَعَلَا: فإنَّه (الشِّرك).

إذا وقعت (العبادة) لله ومقصدٌ آخر مِن مقاصد الدُّنيا ومرادات النَّفس: فإنَّ (العبادة) تكون غير

العبادة الشَّرعيَّة وإنْ كانت (عبادة) في اللُّغة، ولكنَّها في الشَّرع لا تُسمَّى عبادة حتَّى تكون خالصةً لله جَلَّ وَعَلَا.

ولهذا قالوا: (معنى (اعبدوني): يُوحِّدوني):

يعني أنَّ العبادة الَّتي أَمَر الله جَلَّ وَعَلَا بها: هي (الإخلاص).

و(التَّوحيد): هو أنْ يكون العمل واحدًا لواحد.

أنْ يكون العمل مُوحَّدًا لله جَلَّ وَعَلَا، ليس فيه شِركة لغيره؛ وهذا هو (الإخلاص) الَّذي أَمَر الله جَلَّ وَعَلَا به.

وأعظم ما أَمَر الله جَلَّ وَعَلَا به: هو (التَّوحيد)؛ يعني (عبادته جَلَّ وَعَلَا)؛ وذلك أنَّه لا يقبل عملًا بدون ذلك؛ فهو الأصل والأساس.

وهو دعوة الرُّسُل؛ كلُّ رسولٍ يأتي إلى قومه يأمرهم بـ (الإخلاص) بأنْ يعبدوا الله وحده؛ كلُّ نبيٍّ يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

ومعنى (الإله): هو المألوه؛ الَّذي تألهه القلوب حُبًّا وخوفًا وإنابة؛ يعني تتعلَّق به محبَّةً وعبادةً وخشية؛ وهذا هو معنى (لا إله إلَّا الله).

لو قال العبد: (لا إله إلَّا الله) **معناه**: أنَّه يُثبِت تألُّهه عبادته لله وحده، وينفي العبادة عن كلِّ ما سواه.

ولا بدَّ مِن هذا الإثبات والنَّفي.

وأعظم ما أَمَر الله جَلَّ وَعَلَا به: التَّوحيد، ولا يقبل الله جَلَّ وَعَلَا عملًا بدونه.

ولهذا؛ لمَّا بَعَث الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاذًا وغيره مِن الرُّسل – وكذلك هي دعوته – قال له: «**إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ؛ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهم إِلَيْه: شَهَادة أَلَّا إِلَه إِلَّا الله**»، وفي رواية: «**إِلَى أَنْ يَعْبُدُوا الله**»، وفي رواية: «**إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا الله**».

ثمَّ قال: «**فَإِنْ هُم أَجَابُوكَ إِلَى ذَلِك فَأَعْلِمْهم: أَنَّ الله افْتَرَض عَلَيْهم خَمْس صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَة**».

فتبيَّن بهذا: أنَّه لا يصحُّ عمل (لا صلاة، ولا صوم، ولا حَج، ولا صدقة) إلَّا مِن المُوحِّد الَّذي يعبد الله وحده؛ وبهذا يتبيَّن أنَّ التَّوحيد هو أعظم المأمورات، وهو الأساس الَّذي تُبنَى عليه الأعمال كلُّها؛

فإنْ صحَّ صحَّت العبادة كلُّها، وإنْ فسد فالأعمال كلُّها مردودة؛ فيجب أنْ يُعتنَى به أشدَّ العناية.

ومعناه (كما هو معلوم): أنْ تكون العبادة كلُّها لله بأنواعها (مِن الرُّكوع، والسُّجود، والدُّعاء، والنَّذر، والخوف، والخشية، وطلب البركة، والتَّوسُّل، وطلب الاستعانة، وغير ذلك مِن أنواع العبادة الَّتي لا ينفكّ عنها الإنسان).

ولهذا فصَّل ذلك المؤلِّف؛ كما سيأتي بعد هذا.

ثمَّ قال: (وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالعِبَادَةِ).

إفراده بالعبادة: يعني أنْ تكون العبادة خالصة له، ليس فيها اشتراكٌ لغيره، أنْ يكون فردًا واحدًا.

و(التَّوحيد) أُخِذ مِن هذا؛ لأنَّه يُوحِّد العمل، ويُوحِّد مَن له العمل.

كما يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «نونيَّته»:

كُنْ وَاحِدًا لِوَاحِدٍ فِي وَاحِدٍ ... أَعْنِي طَرِيقَ الحَقِّ وَالإِيمَانِ

قوله: (كُنْ وَاحِدًا): يعني (عَبْدًا).

(لِوَاحِدٍ): يعني لله جَلَّ وَعَلَا، لا تُوزِّع العبوديَّة بين الخَلْق وبين الخالق؛ بل كُن عبدًا لمَن تعبَّدك (الَّذي هو الله).

وقوله: (فِي وَاحِدٍ): يعني في طريقٍ واحد؛ الَّذي هو سُنَّة الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهَدْيه الَّذي جاء به دينه.

ولهذا قال: (أَعْنِي طَرِيقَ الحَقِّ وَالإِيمَان).

وقوله: (أَعْنِي) أي (في واحد)؛ يعود على (وَاحِد).

المقصود: أنَّ هذا أَمْرٌ لا بدَّ منه؛ وهو دعوة الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعوة إخوانه مِن الرُّسل قبله، وقد وَضَّحه الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غاية الإيضاح، ولم يترك شيئًا فيه مشكلًا أو ملتبسًا صلوات الله وسلامه عليه.

فلا عُذْر لمَن جَنَح عن هذا الطَّريق أو حاد عنه، ليس له عُذْر للبيان والإيضاح وإقامة الحُجَّة.

والَّذي يُجانِب ذلك – مثلًا – أو يغلو فيه: إنَّما أُتِي مِن تقصيره، هو الَّذي قصَّر؛ فيجب على العبد أنْ يطلب ذلك ويجتهد فيه.

ثمَّ قال: (وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ: الشِّرْكُ).

وقوله: (وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ)، (وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ): ليُبيِّن أنَّه يجب على العبد أنْ يهتمَّ بذلك؛ يهتمُّ بمعرفة أعظم ما أَمَر الله به، ويهتمُّ بمعرفة أعظم ما نهى الله عنه؛ حتَّى لا يكون ضالًّا أو ملتبسًا عليه الأمر.

ومعلومٌ أنَّ رأس مال الإنسان: حياته هذه الدُّنيا؛ فإذا اهتدى بها (اهتدى في حياته) تَحَصَّل السَّعادة، أمَّا إذا ظَلَّ في هذه الحياة القصيرة وهذه المُدَّة المحدودة ثمَّ حَضَره الموت وهو عنده مِن المخالفات أو مِن الشِّرك ما عنده، وتبيَّن له ذلك ونَدِم ما يتمكَّن مِن العودة، ولا يتمكَّن مِن الاستدراك؛ فيكون خاسرًا نفسه وأهله.

كما أخبر الله جَلَّوَعَلَا: مِن الخاسرين الَّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

كيف يخسرون أهليهم؟

أهليهم الَّذين أعدَّهم الله جَلَّوَعَلَا له في الجنَّة، وليس (أهليهم) هؤلاء (الَّذين هُم أولاده، وزوجته، وإخوته، وأبوه، وأُمُّه)؛ فهؤلاء كلُّ واحدٍ له عَمَل، وكلُّ واحدٍ يوم القيامة يفرُّ مِن الآخر؛ كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس] يعني مهتمًّا بنفسه وبعمله، يخاف أنْ يهلك.

وإنَّما أهله الَّذين يخسرهم: أهله الَّذين هُم في الجنَّة؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن النَّاس له مسكن في الجنَّة ومسكن في النَّار؛ فإذا كان مِن أهل النَّار وَرِثه أهل الجنَّة، وإذا كان مِن أهل الجنَّة فإنَّ مسكنه في النَّار يُعطَى كافرًا مِن الكفَّار ويُقال: (هذا فِكاكك مِن النَّار)؛ فيكون هو الَّذي في مقامه وفي مكانه في النَّار.

والمقصود: أنَّه يجب على العبد: أنْ يهتم بأعظم ما أَمَر الله به؛ فيعمل ذلك.

يعرف أوَّلًا – كما سبق –: أنَّه أوَّل ما يُؤمَر به الإنسان (العِلم) (يعلم ذلك)، ثمَّ العمل (يتبع هذا).

وكذلك يهتمُّ بأعظم ما نهى الله عنه (وهو الشِّرك)؛ فلا يوجد علامة موضوعة على (الشِّرك) – عَلَم أو ما أشبه ذلك–؛ حتَّى يتبيَّن لكلِّ أحد؛ وإنَّما يُعرَف بما جاء به الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ولهذا؛ كثيرٌ مِن المسلمين ممَّن يتسمَّى بالإسلام، وممَّن يصوم ويصلِّي في المساجد مع النَّاس يقع في الشِّرك الأعظم وهو لا يدري؛ يظنُّ أنَّه توحيد وأنَّه عبادة!

يذهب إلى قبر الوليِّ ويدعوه متضرِّعًا وخاضعًا له وذالًّا؛ يدعوه أنْ يهب له مِن أمور الدُّنيا أو يتقدَّم بين يدي الله جَلَّوَعَلَا شافعًا له وهو ميِّت!

وهذا هو دين المشركين تمامًا، هو دينهم.

وكثيرٌ مِن النَّاس يظنُّ أنَّ هذا مِن الأعمال الصَّالحة، ويقول: (هذا توسُّل بالصَّالحين، والتَّوسُّل بالصَّالحين مِن أفضل الأعمال)! هكذا يقولون مع أنَّه شرك أكبر.

والمقصود: أنَّه يجب على الإنسان أنْ يتعرَّف على الشِّرك؛ لأنَّه أعظم ما نهى الله عنه، وهو أنواعٌ كثيرة كلُّها تعود إلى شيءٍ واحد؛ وهو أنْ تكون العبادة (الطَّلب، والخوف، والرَّجاء، والنَّذر، والذَّبح، وغيرها) لغير الله جَلَّوَعَلَا، أو شيءٌ مِنها لغير الله جَلَّوَعَلَا.

ثمَّ قال مُبيِّنًا لـ (الشِّرك): (وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ) في أي شيءٍ كان؛ سواءً (في الدُّعاء، أو في العبادة).

وسيأتي أنَّ (الدُّعاء) ينقسم إلى قسمين.

قال: (**وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النِّسَاء:٣٦]).

جاء عن ابن عبَّاس أنَّه قال: (كلُّ أَمْرٍ في القرآن (اعبدوا) فإنَّ معناه التَّوحيد، إفراد الله بالعبادة)، (اعبدوا: يعني وَحِّدوا اللهَ بالعبادة).

لأنَّهم يعلمون أنَّ الله لا يقبل مِن عِباده إلَّا التَّوحيد، إلَّا الإخلاص وما كان خالصًا لله جَلَّوَعَلَا؛ وهذا بَيِّنٌ واضح في القرآن.

(﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النِّسَاء:٣٦]): لماذا بعدما قال: (﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء:٣٦] قال: (﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النِّسَاء:٣٦])؟

لأنَّ (عبادة الله): إذا قال: (﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء:٣٦]) يكفي أنْ تنفي (الشِّرك)، كما قلنا: إنَّ العبادة الشَّرعيَّة لا تكون عبادةً إلَّا إذا كانت خالصة ليس فيها شيءٌ مِن الشِّرك؛ فلماذا قيل هنا: (﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ

شَيْـًٔا﴾ [النِّساء:٣٦])؟

الجواب: أنَّ هذا تأكيد أنَّ العبادة: هي عدم الشِّرك، العبادة لا تكون عبادةً إلَّا إذا لم يقع معها شِرْكٌ بالله جَلَّوَعَلَا.

فهذا كقولك: (لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له)؛ فقوله: (لا شريك له) تأكيد لقوله: (لا إله إلَّا الله).

ويؤكَّد؛ للاهتمام بهذا، يُهتمُّ به.

وقوله: (﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّساء:٣٦]): (شيئًا) هنا نكرة، جاءت بعد النَّهي (في سياق النَّهي)؛ فتكون عامَّةً في كلِّ مخلوق (سواءً كان نبيّ، أو مَلَك، أو وليّ، أو غير ذلك).

وهذا يدلُّنا على أنَّ العبادة يجب أنْ تكون لله وحده، وليس لأحدٍ مِن الخَلْق منها شيء، ليس لأحدٍ مِن خَلْق الله (لا أنبياؤه، ولا ملائكته، ولا أولياؤه) شيئًا مِن العبادة؛ فـ(العبادة) لله وحده.

ثمَّ بدأ بالتَّفصيل (تفصيل الأصول الثَّلاثة) بعد الإجمال الَّذي مَرَّ ذِكره.

فقال: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟).

و(الإِنْسَان): اسم جنس؛ يعني (على كلِّ ذَكَرٍ وأنثى يجب أنْ يعرفها).

وسوف يُسأل كلُّ فردٍ مِن النَّاس عن هذه الأصول في قبره، يُسألون عنها.

إذا دُفِن الميِّت (حال دَفْنه) يأتيه مَلَكان ويسألانه عن هذه الأصول الثَّلاثة؛ كما بَيَّن ذلك رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فيقولان له: (مَن ربُّك؟): وهذا معناه: مَن الَّذي خلقك، وأوجب عليك العبادة، وتَعَبَّدك بذلك؟

وليس معنى (مَن رَبُّك؟): الَّذي ربَّاك بالخَلْق والنِّعَم وما يلزم للحياة والتَّربية فقط؛ هذا ليس مقصودًا.

وإنَّما المقصود: عن العمل، يُسأل عن عمله الَّذي خُلِق مِن أجله؛ ولهذا يأتي (الرَّبّ) بمعنى (المألوه، المعبود).

يقول: (مَن ربُّك؟).

وكذلك يقول له: (وما دينك؟) الَّذي تدين به في حياتك.

و(مَن الَّذي جاءك بالدِّين؟ مِن أين أخذته؟)؛ وهو .. قال: (وما نبيُّك؟): يعني الَّذي جاءك بـ(النَّبَأ) (الخبر) بهذا الدِّين الَّذي تتعبَّد به؛ هذا معناه.

فإنْ كان مُوقِنًا مؤمنًا، عنده اليقين: أجاب إجابة بهدوء بلا خوف ولا تلعثم؛ فيقول: (ربِّي: الله، وديني: الإسلام، ونبيِّ: محمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

وفي رواية: «**يَقُولَانِ لَهُ: (وَمَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟)**»: يعني (هل عرفته أو لم تعرفه؟)، وسيأتي الكلام على هذا.

والمقصود: أنَّ هذه الأصول: يتعيَّن على كلِّ فردٍ أنْ يعلمها علمًا يقينيًّا بلا شكّ ولا تردُّد، ويموت عليها، موقنًا؛ لأنَّه سوف يُسأل عنها.

وإذا كان الإنسان تَعَلَّمها تَعلُّمًا بلا عمل (بلا أنْ يعمل بها): فإنَّه لا ينفعه، وإذا سُئل عنه: سوف يتلعثم ويتردَّد ولا يجيب؛ لأنَّ الجواب يكون عمَّا كان تحلَّى به وعَمِل به وثَبَت في مستقرِّ قلبه ويقينه.

أمَّا إذا لم يثبت: فيُخشَى عليه ألَّا يجيب؛ أنْ يقول مثلما يقول الشَّاك؛ إذا سأله المَلَكان قال لهما: (ها، ها! لا أدري؛ سمعت النَّاس يقولون شيئًا فقُلته) يعني أنَّه مُقلِّدًا، يرى النَّاس يعملون شيئًا ويعمل معهم، ويقولون شيئًا ويقول معهم!

وهذا لا يفيد، لا يجدي شيئًا.

ومِن هنا: يتعيَّن على الإنسان: أنْ يتعلَّم هذه الأصول تَعَلُّمًا يكون مثمرًا في العمل، ويكون متيقِّنًا به، ما تكون عبادته وإسلامه تقليدًا لمَن يراهم ويعمل معهم ويكون معهم.

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلَاثَةُ)؟

يقول: (فَقُلْ: مَعْرِفَةُ العَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ): هذه هي الأصول الثَّلاثة: (معرفة العبد ربَّه)، و(معرفته الدِّين الَّذي كُلِّف به)، و(معرفته النَّبي الَّذي جاء بالدِّين)؛ لأنَّ (الدِّين) يجب أنْ يكون مِن عند الله جَلَّ وَعَلَا، ولا يكون بالأوضاع، ولا بالعقل، ولا بالاجتماع على شيء وسَنُّه (مِن أنظمة، وقوانين، وغيرها)؛ يجب أنْ يكون مِن عند الله جَلَّ وَعَلَا.

لأنَّ الله جَلَّوَعَلَا - كما سيأتي – هو الرَّبّ، و(الرَّبّ) هو الَّذي يَرُبُّ الشَّيء يملكه ويتصرَّف فيه؛ فـ (الأمر) له، و(النَّهي) له؛ فهو الَّذي يأمر بما يشاء، وينهى عن ما يشاء، و(أَمْره، ونَهْيه) هو الدِّين؛ الشَّيء الَّذي يأمر به ويَنهى عنه هو الدِّين.

وهذا لا يكون لكلِّ أحد؛ ما كلُّ أحدٍ يستطيع أنْ يأخذ عن الله؛ وإنَّما يكون بواسطة الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو الواسطة بيننا وبين ربِّنا في تبليغ أوامر الله جَلَّوَعَلَا ونواهيه.

الله يُوحِي إليه أَمْره؛ بأنْ يأمرنا بهذا وهذا (يعني بالأمر وبالنَّهي).

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي): ربَّاني: يعني أَوجَدني وأنْعَم عليَّ بالتَّربية بالغذاء، وإزالة المضار الَّتي تحول بين الإنسان ونُموِّه وحياته، وأنعم عليه ظاهرًا وباطنًا.

وإذا كان هو الَّذي خَلَق، وهو الَّذي رَزَق، وهو الَّذي صَرَف المضرَّات وجَلَب المنافع وحده لا شريك له في ذلك = فإنَّه يجب أنْ يُعبَد وحده؛ يجب أنْ تكون العبادة له وحده؛ وهذا هو المقصود.

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي).

فمعنى (ربَّاني): خَلَقني، وأغدق عليَّ مِن النِّعَم الَّتي بها أتربَّى في بدني وفي رُوحي.

وتربية الرُّوح بـ(الوحي) الَّذي يأتي به الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وأمَّا (البدن): فإنَّها بـ(المأكول، والمشروب)، وكلُّ ذلك مِن الله جَلَّوَعَلَا.

وقوله: (وَرَبَّى جَمِيعَ العَالَمِينَ بِنِعمِهِ): يعني أنَّه خَلَق الخَلْق كلَّهم، وأنعم عليهم بالشَّيء الَّذي يُبقِي عليهم حياتهم، لا شريك له في ذلك.

و(العَالَمِينَ): كلُّ الخَلْق.

فمعنى هذا: أنَّ الوجود كلُّه شيئان فقط، كلُّ الوجود (مخلوق) و(خالق) فقط، ولا يوجد أكثر مِن هذا:

- فـ(الخالق): هو الله وحده، لا شريك له.

- و(ما سواه): مخلوق؛ وهذا المخلوق: الله يتصرَّف به؛ أَوْجَده بعد أنْ لم يكن شيئًا؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان]: لا شكَّ جاء عليه دهور طويلة جدًّا وهو ليس شيئًا، ثمَّ خَلَقه الله جَلَّ وَعَلَا؛ خَلَقه وأنعَمَ عليه، وخَلَقه لعبادته.

فكلُّ مخلوق مِن:

- العقلاء الَّذين هُم (الجِنّ، والإنس، والملائكة) – فهذا الَّذي نعرف مِن العقلاء (الجن، والإنس، والملائكة) –، وهُم متعبَّدون بأوامر ونواهي معيَّنة.

- أو الحيوانات الَّتي خُلِقت لـ(بني آدم) لمنافعهم؛ فهي أيضًا مربوبة مُتعبَّدة عبادة تليق بها.

- أو الجمادات.

ويدخل في (الحيوانات) أيضًا: الشَّجر، والنَّبات كلُّه.

وكلُّ شيءٍ يُسبِّح بحَمْد الله جَلَّ وَعَلَا، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء:٤٤].

والصَّواب مِن أقوال العلماء: أنَّه تسبيح حقيقي بـ(لسان المقال) وليس بـ(لسان الحال) كما يقوله بعض مَن يقول.

ولهذا؛ لمَّا ذكر آية السُّجود: أخبر أنَّ كلَّ شيءٍ يسجد لله، ولمَّا جاء ذِكْر (الإنس والجِن) قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ [الحج:١٨]: يعني كثيرٌ منهم يسجد لله، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج:١٨]: يعني لا يسجد لله؛ أمَّا غيرهم: فهُم يسجدون لله.

ثمَّ قال: (وَهُوَ مَعْبُودِي): يعني ربِّي الَّذي خلقني وربَّاني بنِعَمه الظَّاهرة والباطنة منذ وُضِع الإنسان في رحم أُمِّه نطفة فـ(نِعَم الله) تتوالى عليه:

- حَفِظه في قرارٍ مكين، وغَذَاه تغذية عجيبة في بطن أُمِّه، لا دخل لأُمِّه به ولا لأبيه.

- ثمَّ أخرجه مِن ذلك المكان الضَّيِّق إلى سعة الدُّنيا وليس عليه أي شيء.

- ثمَّ فَتَح له باب الأرزاق، وسخَّر له والدَيْه؛ فأصبح والده ووالدته يسهران على مصلحته، وعلى

منافعه، ويُقدِّمان مصلحته على مصلحتَيْهما؛ تسخيرًا مِن الله له؛ وهي مِن النِّعَم عليه.

حتَّى الحيوانات؛ تجد السَّبع الضَّاري يعطف على ولده ويقاتل دونه أشدَّ القتال، ويسعى على منافعه.

والطَّير، والحيوانات وكلُّهم؛ حتَّى تبلغ وتستطيع أنْ تتحصَّل على الرِّزق بنفسها؛ عند ذلك تتخلَّى عنها.

فالمقصود: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا خَلَق كلَّ شيءٍ، وهداه لمصالحه، وأعطاه خَلْقه الَّذي به تتمُّ نعمته عليه.

(وَهُوَ مَعْبُودِي): يعني الخالق هو الَّذي يستحقُّ أنْ يُعبَد.

ولهذا؛ .. الله جَلَّوَعَلَا وذَمَّ المشركين الَّذين يعبدون ما لا يملك لهم ضُرًّا ولا نَفْعًا؛ فالَّذي لا يملك الضُّرّ ولا النَّفع عبادته ضلال.

وكذلك بيَّن أنَّ المعبودات مِن دونه - كثيرٌ منها - ليس له سَمْع، وليس له بصر، وليس له يد يبطش بها، ولا رِجل يمشي بها.

ومَن أضلُّ ممَّن يعبد مخلوقًا مثلها أو دونها.

وأشدُّ الضَّلال: أنْ يعبد ميِّتًا مرهونًا بعمله في حُفرته، أنْ يتَّجه إليه ويطلب منه أنْ يُنجِيه مِن النَّار وأنْ يهب له مغفرة الذُّنوب، أو يهب له ولدًا، أو يهب له رزقًا، أو ينصره على عدوٍّ، وما أشبه ذلك؛ كما هو شأن الَّذين ينصرفون عن عبادة الله جَلَّوَعَلَا.

(لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ).

(**وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ [الفَاتِحَة]): يعني دليل أنَّ الله هو الرَّب المُرَبِّي المالِك.

(﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ [الفَاتِحَة]):

و(**الحمد**): هو الثَّناء بـ(الجَميل) الاختياري بـ(اللِّسان) على النِّعَم الَّتي يُنعِم بها.

و(ال) هنا: للاستغراق؛ جميع المحامد الَّتي يستحقُّها الرَّبُّ جَلَّوَعَلَا محصورةٌ له.

(﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١﴾ [الفاتحة])، وقوله: (﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١]): يعني الَّذي ربَّاهم ورَبَّهم؛ ربَّهم خَلَقهم وأَوْجَدهم وربَّاهم بـ(النِّعَم).

و(**العالَمين**): كلُّ الخَلْق عالَم، فكلُّ نوعٍ مِن الخَلْق عالَم؛ فـ(الإنس) عالَم، و(الجِن) عالَم، و(الملائكة) عالَم، و(البهائم) عوالم، والشَّجر وغيرها، كلُّ مخلوقٍ عالَم؛ كما بَيَّن الله جَلَّوَعَلَا ذلك.

فهو ربُّ الكُلِّ؛ الَّذي خَلَقهم وأَنْعَم عليهم وتعبَّدهم.

ولهذا قال: (وَكُلُّ مَا سِوَى اللهِ عَالَمٌ): يعني (الله) هو الخالق، و(غيره) مخلوق مربوب مقهور مُسخَّر مُدبَّر، وسوف يرجع كلُّ واحدٍ إلى ربِّه جَلَّوَعَلَا فيُجازيه بعمله؛ إنْ كان مُكلَّفًا (فإمَّا إثابة، وإمَّا عقاب)، وإنْ كان غير مُكلَّف: فإنَّه يُقتصُّ مِن الحيوانات الَّتي قد يعتدي بعضها على بعض ثمَّ يُقال لها: (كوني ترابًا).

فأمَّا إنْ كان غير ذلك: فهو خُلِق لـ(بني آدم)؛ كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣].

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟): هذا معناه أنَّه يلزم على الإنسان: أنْ يتعرَّف على ربِّه جَلَّوَعَلَا، يعني أنَّه لا بدَّ مِن معرفة الرَّبِّ جَلَّوَعَلَا بـ(الدَّليل).

و(**الدَّليل**):

- إمَّا أنْ يكون مِن آيات الله.
- أو يكون بمخلوقاته.
- أو يكون بالعقل الَّذي أعطاه الله جَلَّوَعَلَا الإنسان؛ (وهو يجمع هذا وهذا).
- وإمَّا أنْ يكون بالفطرة الَّتي فُطِر الخَلْق عليها.

والله فَطَر خَلْقه على الإقرار به؛ فكلُّ إنسانٍ مربوب، وإذا وقع في شِدَّة يفزع إلى ربِّه يدعوه؛ فطرةً مِن الله جَلَّوَعَلَا.

ولهذا؛ احتجَّ الله جَلَّوَعَلَا على الكفَّار المشركين بهذه الفطرة؛ فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢].

ولا يوجد إنسان – غالبًا – إلَّا ويقع في كَرْب وفي شِدَّة ويحتاج إلى سؤال ربِّه.

ولا ينفكُّ الإنسان أنْ يكون الله جَلَّوَعَلَا قد استجاب له؛ لأنَّ (الرَّبّ): **مقتضى الرُّبوبيَّة**: أنْ يجيب دعاءهم، وأنْ يقوم على مصالحهم؛ وهو معنى (التَّربية)؛ مِن معاني (التَّربية).

فإذن معرفة الله جَلَّوَعَلَا تكون ظاهرة؛ بآياته.

و(آياته) جَلَّوَعَلَا تنقسم إلى قسمين:

- آياتٌ كونيَّة مخلوقة تُشاهَد.

- وآياتٌ قوليَّة؛ يقولها ويُنزِلها على عِباده.

ويَتْبَع هذا: آياتٌ فعليَّة؛ يفعلها إذا شاء.

ومِن ذلك: ما يكون خارجًا عن المعهود الَّذي يعهده النَّاس، الَّذي يُسمَّى (معجزات)، يُسمِّيه النَّاس (معجزات)، والله سمَّاه (آيات)؛ فهو مِن آياته؛ **مثل**: إحياء الموتى.

معلوم أنَّ الميِّت إذا مات لا أحد يستطيع (مِن الأطباء وغيرهم) إرجاع الرُّوح فيه؛ هذا أَمْرٌ يُقرُّ به العالَم كلُّه؛ كلُّ العالَم يُقرُّون أنَّ الميِّت إذا مات لا يمكن إحياؤه مِن قِبَل الخَلْق، والله يُحييه.

جَعَل ذلك آيات.

وأَوْجَد ذلك بالنَّظَر والمُشاهَدة؛ حتَّى لا يرتاب الإنسان.

وقد ذكر الله جَلَّوَعَلَا (إحياء الموتى) في سورة البقرة في خمسة مواضع:

الموضع الأوَّل: قصَّة الَّذي قَتَل قريبه ليرثه وقد خَفِي (اختفى)؛ فأَمَر الله جَلَّوَعَلَا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يأمرهم أنْ يذبحوا بقرة فيضربوا الميِّت بـ (عضوٍّ منها)؛ ففعلوا، فحيي؛ قام حيًّا وقال: (قتلني فلان؛ فلان هو الَّذي قتلني)؛ لمَّا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة:٦٧] إلى آخر القصَّة؛ هذا واحد.

الموضع الثَّاني: قصَّة الَّذين خرجوا مع موسى، وقد اختارهم لـ (لقاء ربِّه جَلَّوَعَلَا) لمَّا وَعَده أنْ يُكلِّمه: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [النساء:١٥٣] فماتوا؛ فصار موسى يدعو ربَّه: (يا ربِّ؛ ماذا أقول لبني إسرائيل؟) – وقد اختار خيارهم، واختار سبعين منهم – (ماذا أقول لهم؟ قد يتَّهموني)،

وقال: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ [الأعراف:١٥٥]؛ فصار يدعو ربَّه؛ فأحياهم الله جَلَّ وَعَلَا، أحياهم كلَّهم، وجاؤوا أحياء.

الموضع الثَّالث: قصَّة الَّذين خرجوا مِن ديارهم ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٣].

الموضع الرَّابع: قصَّة الَّذي مَرَّ على قريةٍ خاويةٍ على عروشها: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [البقرة:٢٥٩] إلى آخرها.

الموضع الخامس: قصَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حينما قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة:٢٦٠] يعني قَطِّعهنَّ وجَزِّئهنَّ واخلط أجزاءهنَّ وفرِّقها، واجعل على كلِّ جبلٍ مِن الجِبال جزء؛ فقطَّعها وفرَّقها أجزاء، وخَلَط أجزاءها بعضها مع بعض، ثمَّ دعاهنَّ؛ قال: (أقبِلْن، هلُمَّ) فأتين إليه يسعين كما كُنَّ.

<u>أمَّا ما جاء في سورة الكهف</u>: فهو نوم؛ نومٌ ضُرِب عليهم سنين طويلة؛ وهو دليل أيضًا على (الإحياء).

والله على كلِّ شيءٍ قدير، لا يعجز الله شيئًا.

في «الصَّحيحين»: أنَّ رجلًا كان مُسرفًا على نفسه، وكان لم يعمل خيرًا قَط ولكنَّه يخاف الله فحَضَره الموت، فجَمَع أولاده فقال لهم: (يا بَنِيَّ؛ أيُّ أبٍ كنت لكم؟) قالوا: (خير أب)؛ فقال: (إذن افعلوا ما أقول لكم؛ إذا أنا مِتّ فأحرقوني في النَّار حتَّى أكون فَحْمًا، ثمَّ اسحقوني سحقًا دقيقًا، ثمَّ إذا كان يوم عاصف ذرّوا نصفي في البحر ونصفي في البر؛ فوالله لئن قَدر الله عليَّ ليُعذِّبنِّي عذابًا لم يُعذِّبه أحدًا مِن النَّاس).

فنفَّذوا وصيَّته، عند ذلك قال الله جَلَّ وَعَلَا له: (كُن) فقام حيًّا، اجتمع، فقال له: (ما حَمَلك على ما فعلت؟) فقال: (خشيتك يا رب، وأنت أعلم) فغفَر الله له.

هذا أوَّلًا شَكَّ في قُدرة الله، وشَكَّ في البعث، ومعلومٌ أنَّ الشَّكَّ في قدرة الله والشَّكَّ في البعث كُفر، ولكنَّ الله يفعل ما يشاء؛ ما يجوز لإنسانٍ أنْ يقول: (إنَّه يجب على الله أنْ يفعل بهذا المخلوق كذا وكذا).

ولا يكون ذلك حُجَّة على أنَّ مَن أنكر البعث أو أنكر قُدرة الله أنَّه لا يكون كافرًا؛ لأنَّ هذه واقعة عينيَّة في شخصٍ معيَّن، ولله أنْ يفعل ما يشاء.

فإذن نقول: إنَّ الآيات الَّتي يستدلَّ بها الإنسان على الله جَلَّ وَعَلَا: (آياته القوليَّة، ومنها: القرآن).

كيف القرآن يدلُّ على الله؟ ما وجه دلالة القرآن على الله جَلَّ وَعَلَا؟

القرآن مِن أعظم المعجزات، ومِن أكبر الآيات؛ فلا يمكن أنْ يكون هذا الكلام كلام بشر أبدًا مِن وجوهٍ كثيرة جدًّا؛ (لا مِن وجوه التَّرتيب، ولا مِن وجوه المعاني، ولا مِن وجوه الفصاحة والبلاغة، ولا مِن وجوه ما يشتمل عليه مِن الإخبارات ومِن الأمر والنَّهي وغير ذلك).

ولكن هذا لا يعرفه إلَّا مَن يعرف اللُّغة العربية؛ فإذا عرف الإنسان اللُّغة العربية، وتأمَّل ذلك = أيقن يقينًا أنَّ هذا كلام الله، وأنَّه مِن أعظم آيات الله جَلَّ وَعَلَا.

ولهذا؛ كان الكفَّار الَّذين هُم كفَّار بعضهم إذا سمع القرآن سجد، نقول: (لماذا تسجد؟) وهو ليس بمؤمن، يقول: (أسجد لهذه الفصاحة والبلاغة، وهذا البيان العظيم).

الَّذين يعرفون اللُّغة تمامًا عندهم مِن العِناد والكِبر، ومِن رَدّ دعوة الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحرص على ألَّا يسمعه أحد؛ بحيث إنَّهم كانوا يتعاهدون ويتعاقدون ألَّا يذهب أحدٌ منهم يستمع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقرأ القرآن في اللَّيل في بيته.

فإذا مضى أكثر اللَّيل: كلُّ واحدٍ منهم يقول: (لعلَّ الباقين لا يعلمون عنِّي) فيذهب ويستمع؛ فيلقى أصحابه الَّذين كان يعاهدهم، ثمَّ يتلاومون.

ويقول أحدهم: إنَّه ليس كلام بشر، ولا كلام جِن، ولا كلام كَهَنة؛ إنَّ أسفله مُغدِق، وأعلاه مُورِق، إنَّ له طلاوة وعليه حلاوة.

فإذا سمع العربي آيةً منه لا يملك إلَّا أنْ يُذعن ويؤمن بذلك.

فهذا مِن أعظم الآيات.

وقد تحدَّى الله جَلَّوَعَلَا البشر أنْ يأتوا بشيءٍ منه؛ قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:٢٤]: هذا النَّفي لن يقع أبدًا؛ لأنَّه كلام الله.

وفي الآيـــة الأخـــرى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء]؛ لأنَّه كلام الله.

والفَرْق بين (كلام الله) و(كلام البشر) كالفَرْق بين (الله) تعالى وتقدَّس وبين (البشر).

فهذا مِن أعظم الآيات الدَّالَّة على الله جَلَّوَعَلَا.

ومِن ذلك: ما فيه مِن ذِكْر الآيات الخاصَّة، الإخبارات الَّتي يُخبِر بها لم تسبق؛ فقد أُنزل على محمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وكان لا يكتب ولا يقرأ، لا يقرأ الكتابة ولا يكتب، (أُمِّيّ) صَلَوَاتُ ٱللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

فأتى بـ (إخبارات) الَّتي لا يمكن أنْ يأتي بها إلَّا الوحي؛ مِن:

- خبر خَلْق السَّماوات.
- وخبر آدم مع زوجه؛ لمَّا خلَقه الله جَلَّوَعَلَا بيده، وعلَّمه أسماء كلِّ شيء، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنَّته، ثمَّ سَوَّل له الشَّيطان وأقسم له وأخرجه مِن الجنَّة؛ غرورًا (غَرَّه).
- وكذلك نبأ (نوح) مع قومه.
- و(هود) مع قومه.
- و(إبراهيم) مع قومه.
- و(صالح) مع قومه.
- و(شُعَيب).
- و(لوط).
- و(موسى).
- وغيرهم مِن الأنبياء الَّذين ذكرهم الله.

وكذلك الأنباء الَّتي ستكون:

- ممَّا يكون يوم القيامة.

- وإلى أنْ يدخل أهل الجنَّة الجنَّة، وأهل النَّار النَّار.

وكذلك الأوامر الَّتي تكون في المستقبل؛ الَّذي قد نُدركه وقد لا نُدركه في هذه الحياة.

وكذلك ما يُنبِّه به العقول مِن النَّظر؛ كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة]، يتأمَّلون ويعقلون هذه.

والآيات كثيرة، كلُّها أدلَّة.

وكذلك الأمور الَّتي تُقنِع تمامًا العاقل؛ كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور]، هل يمكن؟! هل يمكن أنْ يُخلَق مخلوق بلا خالق، وليس هناك خالق خَلَقه، يوجد صدفة كما يُقال؟! هذا مستحيل، أبدًا، لا يمكن؛ فلا يمكن أنْ نجد سيَّارة بلا صانع أبدًا.

فإذا كان مخلوقًا فلا بدَّ له مِن خالق.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطور]: **ذكر أمرين:**

- ﴿خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطور:٣٥]: هذا مستحيل.

- وذكر الأمر الثَّاني: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]: يعني هُم خلقوا أنفسهم؟! هذا مستحيل، ولا يكون مثلهم خَلَقهم.

وسَكَت عن الأمر الثَّالث الَّذي لا بدَّ منه: أنَّ لهم خالِق خَلَقهم (هو الله جَلَّ وَعَلَا)؛ وهذه طريقة القرآن؛ يذكر الأمور الباطلة فيُبطلها، ويسكت عن الحقِّ؛ لينظر العقل فيه ويتأمَّل، ويعلم ذلك.

يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]:

إمَّا أنَّ الضَّمير في ﴿أَنَّهُ﴾ [فصلت:٥٣]: يعود إلى (القرآن)، أو يعود إلى (الرَّسول)، وكلاهما متلازِم؛ فـ

(الرَّسول، والقرآن) حق، كلاهما حق.

ويقـول جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ [الطارق].

متى؟

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ [الطارق].

في آيات كثيرة يُنبِّه جَلَّوَعَلَا.

ثـمَّ كـذلك مِـن الآيـات الَّتي تـدلُّ على الـرَّبِّ جَلَّوَعَلَا: المخلوقـات (مخلوقاتـه)؛ مثـل: (السَّـماوات والأرض) كما ذكر؛ وهي مِن أعظم الآيات.

وهذه السَّماوات بعضها فوق بعض، ونحن نشاهدها، **فالمُشاهَد لنا**: هـو السَّـماء؛ الَّـذي يقـول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق].

وكـذلك الأرض بهـذه الصِّـفات (بمـا فيهـا مِـن الجبـال، ومِـن الأشـجار، ومِـن البحـار، ومِـن الأنهـار، والنَّباتات المختلفة في ألوانها وطعومها مع أنَّ التُّربة واحدة والغذاء واحد – الماء واحد –).

وكذلك مِـن آياتـه الَّتـي تـدلُّ عليـه جَلَّوَعَلَا: آياتُـه الَّتي هـي أوصـافه، وأفعالـه؛ فهـو يتعـرَّف إلـى عبـاده جَلَّوَعَلَا بـ (صفاته)، وبـ (أسـمائه)، وبـ (مـا يفعلـه لهـم) وهـي أشـياء كثيـرة جـدًّا؛ إذا تأمَّلهـا الإنسـان اقتنـع بشيءٍ منها.

فهـذا معنـى (معرفـة الـرَّبِّ)؛ كـون الإنسـان يعـرف ربَّـه بهـذه الجوانـب، بهـذه الأمـور؛ يجـب أنْ ينظـر ويتيقَّن؛ وبذلك يتيقَّن أنَّ الله هو ربُّه جَلَّوَعَلَا.

هو يسأل ربَّه جَلَّوَعَلَا أنْ يهديه لهذا؛ لأنَّه لا بدَّ مِن هداية الله جَلَّوَعَلَا.

معلوم، النَّاس عقلاء، وكثير مِن العقلاء عقولهم عقول دنيويَّة فقط، ما هدتهم عقـولهم إلـى معرفـة الله جَلَّوَعَلَا وإلى معرفة مستقبلهم الحقيقي، ما هدتهم.

وإنَّما هَدَتهم إلى مخترعات دنيويَّة – كما هو مُشاهَد الآن –، ومـع ذلـك هُـم كَفـرة، لهـم هـذه الحيـاة

الدُّنيا، فإذا ماتوا فهُم في جهنَّم؛ فما نفعتهم هذه العقول.

لهذا؛ يجب على العبد: أنْ يسأل ربَّه الهداية دائمًا (أنْ يهديه).

ومع هذه الدَّلائل الظَّاهرة الواضحة الَّتي إذا نَظَر إليها العاقل اطمئن.

وليس هناك أمور صعبة؛ كما يتصوَّره أهل الكلام وأهل الجَدَل؛ الَّذين جاؤوا بأمورٍ لم تأتِ بها الرُّسل؛ وإنْ كانت صحيحة في نفسها غير أنَّها طُرُق ملتوية وصعبة على كثيرٍ مِن النَّاس؛ النَّظر إلى الحوادث وإلى ما يلزم لها (مِن أين جاءت؟ والأصول، أصلها)، الأمور أنَّها جواهر وأعراض وما أشبه ذلك:

والجوهر: هو الشَّيء الَّذي يقوم بنفسه.

والعَرَض: هو الَّذي يعرض ويزول.

ويعرض لغيره؛ لا بدَّ أنْ يكون في غيره.

إلى آخره.

فهذه أمور وإنْ كانت في نفسها قد تكون صحيحةً تهدي، ولكنَّها لا تكفي.

ولم تأتِ بها الرُّسل؛ وإنَّما جاءت الرُّسل بأمورٍ واضحةٍ مِثل الَّتي ذكرنا.

ثمَّ قال: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ).

وقلنا: **إنَّ آيات الله:**

- تكون قوليَّة.

- وتكون فعليَّة.

(وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ): يعني كون (اللَّيل) يأتي فتُظلِم الأرض كلُّها، ثمَّ يأتي (النَّهار) ويزول الظَّلام.

ومعلوم: أنَّ اللَّيل والنَّهار مِن أثر الشَّمس وظِل الأرض.

ولكن مَن الَّذي وَضَع الشَّمس هكذا بهذه الطَّريقة؟ هل هي الَّتي تضع نفسها؟

كلَّا، أبدًا، هي مُسخَّرة.

ولهذا؛ لمَّا قال الكافر العنيد لـ (إبراهيم) لمَّا دعاه إلى الإيمان بالله: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨] يعني إنْ كنت صادقًا؛ ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨] [٥].

(٥) نهاية المجلس الرابع.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟

فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ.

وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ.

وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ:

قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فُصِّلَت].

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأَعْرَاف].

وَ(**الرَّبُّ**): هُوَ المَعْبُودُ.

وَالدَّلِيلُ: **قَوْلُهُ تَعَالَىٰ**: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: (الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلعِبَادَةِ).

وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا؛ مِثْلُ الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ؛ **وَمِنْهُ**: الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالخُشُوعُ، وَالخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا = كُلُّهَا للهِ تَعَالَىٰ.

وَالدَّلِيلُ: **قَوْلُهُ تَعَالَىٰ**: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن].

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ.

وَالـدَّلِيلُ: قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون].

وَفِي الحَدِيثِ: «الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ».

وَالـدَّلِيلُ: قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غَافِر].

وَدَلِيلُ (الخَوْفِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آلِ عِمْرَان: ١٧٥].

وَدَلِيـلُ (الرَّجَـاءِ): قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكَهْف].

وَدَلِيلُ (التَّوَكُّلِ):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المَائِدَة].

وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ﴾ [الطَّلَاق:٣].

وَدَلِيلُ (الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالخُشُوعِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأَنْبِيَاء].

وَدَلِيلُ (الخَشْيَةِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البَقَرَة:١٥٠].

وَدَلِيلُ (الإِنَابَةِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزُّمَر:٥٤].

وَدَلِيلُ (الاسْتِعَانَةِ):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفَاتِحَة].

وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».

وَدَلِيلُ (الاسْتِعَـــاذَةِ):

قَوْلُـــهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ [الفَلَق].

وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [النَّاس].

وَدَلِيلُ (الاسْتِغَاثَةِ): قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩].

وَدَلِيلُ (الذَّبْحِ):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣] الآية.

وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ».

وَدَلِيلُ (النَّذْرِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

هذا (الأصل الأوَّل)؛ الَّذي هو معرفة العبد لربِّه جَلَّ وَعَلَا.

قلنا: إنَّ معرفة العبد لربِّه جَلَّ وَعَلَا: تكون بآياته القوليَّة، وبآياته الفعليَّة بأفعاله الَّتي يفعلها؛ يعني المخلوقات؛ مخلوقاته الَّتي تدلُّ عليه.

والدَّلائل على الله جَلَّ وَعَلَا كثيرةٌ جدًّا، لا حصر لها.

ولكن الأمور الظَّاهرة الجليَّة، وإلَّا فكلُّ حَدَثٍ لا بدَّ له مِن مُحدِث، ولا يمكن أنْ يكون المُحدَث أَحدَثه مُحدِثٌ مِن جنسه، أبدًا؛ هذا مستحيل في العقل.

يعني السَّيَّارة لا يمكن أنْ تصنعها سيَّارة أبدًا؛ لا بدَّ أنْ يصنعها شيءٌ فوقها؛ له فِكْر، وله نَظَر، وله تَصَرُّف.

و(المخلوقات) الَّتي نشاهدها: على نظامٍ دقيق جدًّا، مُحكَم، مُتقَن، لا يمكن أنْ تكون هي أتقنت ذلك وأحكمته؛ فلا بدَّ أنْ يكون لها مُتقِن، خالِق، مُوجِد، مُصرِّف.

وفي كلِّ دقيقٍ وجليلٍ مِن هذه المخلوقات دليل على أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا هو الرَّبُّ الَّذي يجب أنْ يُعبَد، يجب أنْ تكون العبادة له، وهو الَّذي خَلَق النَّاس، خَلَقهم لعبادته.

والمراد: التَّنبيه على هذه الأمور؛ حتَّى يكون الإنسان على بصيرة؛ لأنَّ هذا لا يجوز فيه التَّقليد، لا يجوز أنْ يكون الإنسان تابعًا للنَّاس في هذا بأنْ يقول: (النَّاس يقولون: كذا، وأنا أقول مثلهم)! وإنَّما يجب أنْ يكون مقتنعًا بنفسه، مقتنعًا بالأدلَّة.

ولهذا؛ إذا سُئل في القبر ...

ولا بدَّ مِن المسائل عن هذه الأصول الثَّلاثة؛ كلُّ ميِّتٍ يُسأل عن هذه الأصول الثَّلاثة في قبره، ولا بدَّ أنْ يكون مقتنعًا، والاقتناع هو الَّذي يبقى في النَّفس، وهو الَّذي يمكن أنْ يجيب به المسؤول؛ فالمسؤول يجيب عن الشَّيء الَّذي يكون مقتنعًا به، ثابتًا عنده مستقرٌّ.

أمَّا إذا كان مُقلِّدًا - كان يرى النَّاس يفعلون الشَّيء ويفعله معهم بدون أنْ يكون ذلك ثابتًا في قلبه وفي نفسه -: فهذا يُخشَى عليه أنَّه إذا سُئِل أنْ يقول: (لا أدري؛ سمعت النَّاس يقولون شيئًا فقُلته)، أو (رأيت النَّاس يفعلون شيئًا ففعلته)؛ فيقع عليه العذاب، ويصبح مِن الَّذين لم يُثبَّتوا بالقول الثَّابت في قبورهم.

والله جَلَّوَعَلَا يُثبِّت بالقول الثَّابت الَّذين آمنوا في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة؛ **في الآخرة**: يعني في القبر - سؤال الملَكَيْن المُوكَّلَيْن بالإنسان -.

ثمَّ هذا أمره سهل ميسور.

هو أوَّلًا مُشاهَد ومُعايَن؛ يُدركه كلُّ عاقل.

الثَّاني: أنَّه مركوزٌ في الفِطَر؛ فطرة الإنسان تدلُّه على ذلك.

ولهذا؛ إذا مَسَّ الإنسان ضُرٌّ أو كَرْبٌ فإنَّه يلجأ إلى ربِّه جَلَّوَعَلَا؛ يعلم أنَّ له ربٌّ يستجيب له ويُغيثه؛ يُغيثه بما يحتاج إليه؛ وهذا مِن مقتضى الرُّبوبيَّة؛ مقتضى ربوبيَّة الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّ (الرَّبَّ): هو الَّذي يَرُبُّ الخَلْقَ بالنِّعَم، ويزيل عنهم ما يضرُّهم، ويجلب لهم ما ينفعهم - تعالى وتقدَّس -.

ولهذا؛ يقول: إنَّ الرَّبَّ هو المستحقُّ للعبادة.

يعني أنَّ الَّذي يَملِك النَّفع ويدفع الضُّر: هو الَّذي يجب أنْ يُعبَد، وليس هذا إلَّا لله جَلَّوَعَلَا؛ كلُّ الخَلْق ما يملكون شيئًا مِن دون الله جَلَّوَعَلَا.

ثمَّ استطرادًا وذِكْرًا للأدلَّة.

دَخَل في الأصل الثَّاني الَّذي هو معرفة الدِّين؛ لأنَّ معرفة الدِّين: هو معرفة كيف نعبد الله، كيف العبادة، كيف نعبده، وعبادته جَلَّوَعَلَا حَسْب أَمْره ونَهْيه الَّذي جاء به الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

وذلك أنَّ المسألة مرتبطة؛ يعني كون الإنسان يعرف ربَّه يلزم مِن ذلك: أنْ يعرف كيف يعبده، يعرف العبادة، وإلَّا لا فائدة في معرفة الله جَلَّوَعَلَا بدون عبادته، ليس في ذلك فائدة.

الخَلْق كلُّهم - منذ انتشروا في الأرض إلى أنْ يرث الله جَلَّوَعَلَا الأرض ومَن عليها - يعترفون بأنَّ الله موجود، وأنَّ الله خالق، إلَّا المكابِرون المعانِدون؛ فهذا أَمْرٌ آخر، والعِناد لا يبقى؛ وإنَّما يأتي في وقت العافية.

أمَّا إذا حَقَّت الحقائق ووقع العذاب: فإنَّهم يرجعون إلى الحقِّ؛ كما وقع لفرعون الَّذي كان يقول للنَّاس: (أنا ربُّكم) فلمَّا أدركه الغرق: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، ولكن لا ينفع؛ ولهذا قال له المَلَك: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ [يونس:٩١]؟! ما ينفع.

وهذا مِثل قول الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تُقْبَلُ التَّوْبَة مَا لَمْ يُعايِن**».

وفي روايةٍ أخرى: «**تُقْبَلُ التَّوْبَةُ مَا لَمْ يُغَرْغِر**»: يعني أنْ ييأس الإنسان مِن الحياة ويُوقِن بأنَّه انتهى منها؛ فهنا لا تُقبَل توبته، يعني عَايَن الملائكة الَّذين يقبضون روحه وعاين الموت؛ فهنا لا فائدة؛ لأنَّ حُكمه حُكْم الميِّت.

وكذلك الَّذي عاند وحاجَّ إبراهيم: ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]؛ لمَّا قال له إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] فقال له: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨] يعني (أنا أَأْمُر برجلٍ فيُقتَل؛ فيكون هذا إماتة، وأَأْمُر بآخر ويُعفَى عنه، لا يُقتَل؛ فيكون هذا حياة)!! وهذه مغالطة؛ فليست هذه إحياء وإماتة.

ولهذا؛ لمَّا رأى إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أنَّه يغالط في الأمور الواضحة جاءه بأمرٍ واضحٍ جليٍّ جِدًّا، لا يمكن أنْ يهرب منه؛ فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾ [البقرة:٢٥٨] فإذا كنت صادقًا ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨] اعكس مسيرها؛ فهنا ﴿فَبُهِتَ﴾ [البقرة:٢٥٨]، ما استطاع الجواب، ولا استطاع أنْ يقول شيئًا.

فـ(العِناد) لا يبقى، وليس العناد فيه كلام في الأدلَّة والنَّظر؛ لأنَّ الله جَلَّوَعَلَا أرسل للمعاندين الحديد؛ ولهذا يقرِن جَلَّوَعَلَا بين (الكتاب) وبين (الحديد) في مواضع؛ يُنزِل الكتاب ويُنزِل الحديد فيه بأس شديد؛ فـ(الحديد) للمعاندين المكابرين، و(الكتاب) لمَن يريد الدَّليل، لمَن يقتنع بالأدلَّة.

و(الكتاب) يدلُّ العقول ويُرشدها إلى معرفة الله وإلى عبادته جَلَّوَعَلَا.

قال: (وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ):

اللَّيل والنَّهار: مِن أكبر الأدلَّة على وجود الله جَلَّوَعَلَا، وأنَّه يجب أنْ يُعبَد؛ فإنَّه يكون النَّاس في ضياء وإشراق الشَّمس ونورها وضوئها؛ ثمَّ إذا ذهبت غشيهم اللَّيل، ثمَّ هكذا دائمًا؛ كلُّ واحدٍ يطلب الآخر حثيثًا خلفه، ولا واحد يسبق الآخر بتدبيرٍ مُتقَن؛ يدلُّ على أنَّ له مُدبِّر، ولا يمكن أنْ يكن المُدبِّر مِن جنس هذه المخلوقات؛ فهو ليس كمثله شيء جَلَّوَعَلَا، هو الله جَلَّوَعَلَا.

ولهذا؛ سُئل أعرابيٌّ - كان مع إبِله، لم يقرأ ولم يكتب، ولم يتعلَّم فلسفة ولا غير ذلك، ولكنَّه مُفكِّر، عنده عقل -؛ قيل له: (كيف عرفت الله؟).

فقال: يا عجب؛ الأثر يدلُّ على المسير، والبَعْرة تدلُّ على البعير؛ بحارٌ ذات أمواج، وسماءٌ ذات أبراج، وجبالٌ ذات فِجاج ألَا تدلُّ على الخالق البصير؟!

يعني هذه الأشياء المُشاهَدة الَّتي يشاهدها دلائل واضحة.

وهكذا العقل.

ولهذا؛ يُرشِد الله جَلَّوَعَلَا إلى ذلك؛ يقول جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة].

﴿يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]: يعني عندهم عقل.

وكلُّ جملةٍ مِن هذه الآية دلائل هائلة بيِّنة واضحة:

- خَلْق السَّماوات والأرض.

- وكذلك البحار وتسخيرها، وما فيها مِن الحيوانات وغيرها.

- والمنافع الَّتي تنفع النَّاس.

- وكذلك ما أنزل الله مِن السَّماء مِن ماء؛ كيف يُحمَل الماء؟ ومِن أين يأتي؟ وكيف يحمله السَّحاب؟ السَّحاب: الَّذي هو شَبيهٌ بالدُّخَّان كيف يحمل الجبال مِن المياه؟ إذا نزلت أحيانًا تُغرِق ما تنزل عليه، وكذلك ما فيها مِن برق ورعد وصواعق، وأشياء ظاهرة جدًّا.

- ثمَّ إذا نَزَل الماء: ما أثره؟ كيف تتشقَّق الأرض؟

- ثمَّ تخرج أنواع النَّباتات؛ الَّتي فيها حياة الإنسان وحياة البهائم والطُّيور وغيرها ممَّا هو على الأرض، مِن أين خرج؟ ومَا الَّذي شقَّق الأرض عنه؟ ثمَّ ألوانه وطعومه المختلفة، مع أنَّ الماء واحد، والتُّراب واحد.

- ثمَّ الرِّياح؛ الَّتي مرَّةً تأتي مِن هنا، ومرَّةً تأتي مِن هنا؛ فهي تحمل السَّحاب وقد تقتلع العمائر والأشجار وغيرُها.

وغير ذلك كثير مِن الآيات الَّتي يذكرها الله جَلَّوَعَلَا؛ كلُّها دلائل واضحة على أنَّ الله جَلَّوَعَلَا هو الخالق، وهو الَّذي يجب أنْ يُعبَد.

وقوله: (وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ): يعني أنَّها مِن أعظم الآيات؛ كونه خَلَق الشَّمس بهذه الصُّورة، وعلى هذه الصِّفة العظيمة العجيبة، وبهذا الارتفاع الشَّاسع، ثمَّ سَرَيانها وجَرَيانها مع الأرض في هذا النِّظام، وبالوقت الطَّويل جدًّا وهي لا تتغيَّر، على ما هي عليه.

النَّاس لو أرادوا أنْ يضيئوا بلدة مِن البُلدان يتعبون بالتَّمديدات، وإيجاد المولِّدات، وأشياء تتطلَّب عمل كثير جدًّا، وهي بقعة صغيرة محصورة.

وهذه تُضيء الأرض كلَّها بإضاءة هائلة، وهي هكذا آلاف السِّنين ولم تنقص، وهي على ما هي عليه؛ حتَّى يأتي وَعْد الله جَلَّوَعَلَا.

وكذلك (القمر): إضاءته، وما يترتَّب عليها مِن الآيات والمنافع.

وهذا الَّذي يطلب الله جَلَّوَعَلَا منَّا أنْ نتأمَّله؛ حتَّى يدعونا ذلك إلى عبادته.

ولهذا قال: (﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧]).

و(السُّجود) يُقصَد به: التَّوجُّه بالعبادة.

وإنَّما يجب أنْ يكون (التَّوجُّه بالعبادة) إلى مَن خَلَق الشَّمس والقمر وسخَّرهما.

(﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧]).

وقوله: (﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٧]): يعني أنَّ أكثر النَّاس لا يتأمَّل ذلك ولا .. به، ولا ينتفع به؛ فيصبح إمَّا أنْ يعبد نفسه، أو يعبد مخلوقًا مثله أو أقل منه؛ كأنْ يكون ميِّتًا لا يملك لنفسه شيئًا فضلًا عن داعيه.

ثمَّ ذكر الآية الأخرى: (﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٤]).

ذكر أنَّ الخَلْق وقع بعد أنْ لم يكن موجودًا في هذه الآية؛ ولذلك قال: (﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٤])، وهذه الأيَّام السِّتَّة الَّتي ذكرها..

معلوم أنَّ خَلْق السَّماوات والأرض قبل وجود الشَّمس والقمر.

فهذه الأيَّام:

- إمَّا أنْ تكون مُقدَّرة بهذه الأيَّام الَّتي نعرفها.

- أو تكون بحركة شيءٍ آخر؛ أفلاكٍ أخرى، ومخلوقاتٍ أخرى قبل خَلْق السَّماوات والأرض؛ الله يعلمها.

وما وراء هذه المخلوقات: لا نعلمها، ولا نتكلَّم بها، وإلَّا فالله جَلَّوَعَلَا أوَّلٌ لا مبدأ له، وما كان ربُّنا جَلَّوَعَلَا قبل خَلْق السَّماوات والأرض لا يفعل شيئًا، مُعطَّلًا عن الفِعل والقول والتَّصرُّف – تعالى الله وتقدَّس –؛ بل كان يفعل ما يشاء؛ كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، كلُّ ما أراد أنْ يفعله فَعَله، ولكن عَقْل الإنسان محدود وصغير؛ فعليه أنْ يقف بالشَّيء الَّذي يستطيع إدراكه.

أمَّا ما وراء الأمور المُدرَكة المُشاهَدة: فهو شيءٌ يحتاج إلى خبر مِن الله جَلَّوَعَلَا.

ومِن رحمة الله جَلَّوَعَلَا: أنَّه يخبرنا بالشَّيء الَّذي تتحمَّله عقولنا.

ففي «صحيح البخاري» حديث عمران بن حُصَين؛ يقول: (أتيتُ على راحلتي فعقلتُها عند باب

المسجد، ودخلت فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ دَخَل بنو تميم فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا بَنِي تَمِيم؛ اقْبَلُوا البُشْرَى**» فقالوا: (بشَّرتنا فأعطنا) فتغيَّر وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ لماذا؟

لأنَّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبشِّرهم بـ(السَّعادة الأبديَّة)، يُبشِّرهم بأنَّهم قَبِلوا هذا الدِّين ودخلوا فيه، ومَن فَعَل ذلك فإنَّ له السَّعادة الَّتي لا تُشبِه سعادة الدُّنيا.

فلمَّا انصرف نَظَرهم وقولهم إلى أَمْر الدُّنيا وقالوا: (بشَّرتنا فأعطنا): عَلِم أنَّهم لم يفهموا ما أراد، وأنَّهم يتعجَّلون؛ فلهذا تغيَّر وجهه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثمَّ دخل أهل اليمن فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أَهْلَ اليَمن؛ اقْبَلُوا البُشْرَى؛ إِذْ لَمْ يَقْبلها إِخْوَانُكم بَنُو تَمِيم**» فقالوا: (قَبِلنا؛ جئناك نتفقَّه في الدِّين، ونسألك عن مبدأ هذا الأمر) فقال: «**كَانَ اللهُ ولَمْ يَكُنْ شيءٌ قَبْلَه، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض، ثُمَّ كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْء**».

يقول عمران بن حُصَين: فأتاني آتٍ فقال: (أدرك ناقتك؛ فقد ذهبت).

(فخرجت فإذا السَّراب يتقطَّع دونها، وأيمُ الله لوددت أنِّي تركتها ولم أخرج) يعني يجلس يسمع العلم والإيمان الَّذي يقوله الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقول أهل اليمن: (جئناك نتفقَّه في الدِّين، ونسألك عن أوَّل هذا الأمر): (هذا الأمر) شيءٌ مشار إليه: يعني هذه المخلوقات المُشاهَدة - مِن السَّماء، والجبال، والأرض، والأشجار، وغيرها -: ما أوَّلها؟

فلهذا جاء الجواب مُطابِقًا لهذا السُّؤال؛ قال: «**كَانَ اللهُ ولَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَه، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْض، ثُمَّ كَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْء**».

فالمقصود: أنَّ الخبر عن المخلوقات المُشاهَدة (مِن السَّماوات والأرض).

ثمَّ السَّماوات الَّتي يأمرنا ربُّنا جَلَّ وَعَلَا بالتَّفكُّر فيها: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق].

يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك].

هل يأمرنا الله جَلَّوَعَلَا: أنْ ننظر إلى العدم؟! إلى شيءٍ لا وجود له؟! وإنَّما هذا الَّذي نشاهده فوقنا، هذه الزُّرقة هي الَّتي سمَّاها ربُّنا جَلَّوَعَلَا (سماء)، وهي سماء مبنيَّة، حقيقيَّة، لها أبواب، ولا أحد يدخلها إلَّا بإذن ويُفتَح له.

كما جاء الحديث الصَّحيح عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حديث البراء بن عازب – الطَّويل -؛ الَّذي فيه (احتضار الميِّت)، وقصَّة أنَّه إذا مات وأنَّ روحه يُعرَج بها إلى السَّماء، ثمَّ يُستفتَح لها باب السَّماء؛ فإنْ كانت مِن أهل الخير والبِر فُتِح لها، ثمَّ لا يزال يُستفتَح لها باب السَّماء إلى أنْ تنتهي إلى السَّماء الَّتي فيها الله؛ فيقول الله جَلَّوَعَلَا لهم: (اكتبوا كتابه في علِّيِّين، وأعيدوه إلى الأرض؛ فمنها خلقتهم، وإليها أُعيدهم، ومنها أُخرِجهم تارةً أخرى).

أمَّا إذا كان فاجرًا أو كافرًا: فإنَّه إذا استُفتِح له باب السَّماء الدُّنيا: لم يُفتَح له، ثمَّ ينادي منادٍ: أنْ اكتبوا كتابه في سجِّين، ثمَّ يقول: تُطرَح طرحًا، تُلْقَى.

فقرأ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

ولكن أين تذهب؟ ترجع إلى جسدها حتَّى تكون معه في القبر، ويحصل العذاب على الرُّوح والبدن معًا.

وكذلك في حديث المعراج – وهو ثابتٌ بالتَّواتر -: أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذهب صُحبة جبريل، فلمَّا وصل إلى سماء الدُّنيا استفتح جبريل باب السَّماء فقيل له: (مَن) فقال: (جبريل)، فقيل: (ومَن معك؟) قال: (محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ)، فقيل له: (أبُعِث؟) – يعني (أُرْسِل) – قال: (نعم)؛ ففتحوا له.

وهكذا في السَّماء الثَّانية، والثَّالثة، والرَّابعة، والخامسة، والسَّادسة، والسَّابعة؛ هكذا يذكر.

فقول أهل الهيئة الَّذين لا يؤمنون إلَّا بـ(المحسوس): (إنَّ هذه الزُّرقة الَّتي نشاهدها ليست حقيقيَّة؛ وإنَّما هي انعكاسات أبخرة – أكسجين، أو غير ذلك -، أو بحار، أو غيرها): كلامٌ غير صحيح.

فالله جَلَّوَعَلَا أخبرنا أنَّه خَلَق السَّماء، وأمرنا أنْ ننظر إليها؛ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا

وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق].

وكذلك يقول في آياتٍ كثيرة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ كثير، وفيها: أنَّها خُلِقت بلا عمدٍ نراها، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]، ليس فيها شيء تعتمد عليها؛ فهي مُقبَّبة على الأرض، والسَّماء الَّتي فوقها كذلك مُقبَّبة عليها، والَّتي فوقها كذلك.

والشَّمس والقمر والنُّجوم تحت السَّماء الدُّنيا؛ زينةً لها؛ كما أخبر الله جَلَّوَعَلَا.

فهذا من آيات الله جَلَّوَعَلَا.

وقوله: (﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]): سبق الكلام في الاستواء، وأنَّه فِعْلٌ خاصٌّ بالعرش، وأنَّ الله جَلَّوَعَلَا غنيٌّ عن العرش ولكنَّه جَلَّوَعَلَا أخبرنا بأنَّه خَلَق العرش ثمَّ استوى عليه.

والعرش، وحملة العرش وغيرهم: فقراء إلى الله جَلَّوَعَلَا، والله هو الغنيُّ بـ(ذاته) عن كلِّ ما سواه، ولكنَّه يفعل ما يشاء، وكلُّ فِعْلٍ يفعله فهو لحكمة؛ ولهذا أخبرنا بذلك لنؤمن به، لنؤمن بذلك، ويبتلي عِباده: هل يؤمنون بهذا أو يردُّونه، أو يضلُّون فيه؟

فيجازي مَن آمن على حسب خبر الله جَلَّوَعَلَا.

ومَن لم يقبل ذلك: فجزاؤه عند الله، وليس بمُعجِز.

وقوله: (﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]): معنى (يُغشِي): يُدخِل هذا بهذا؛ فتجد النَّهار ملتصقٌ بالليل، والليل ملتصقٌ بالنَّهار، وكلُّ واحدٍ يطلب الآخر بسرعة، وهكذا إلى أنْ يأذن الله جَلَّوَعَلَا في تَغَيُّر الكون؛ فهناك يبدأ التَّغيُّر؛ فيأتي يومٌ كـ(سنة)، ويومٌ كـ(شهر)، ويومٌ كـ(أسبوع)، وهذه الأيَّام الثَّلاثة مِن أيَّام الدَّجَّال حينما يخرج؛ وهذا إيذانٌ بـ(تَغَيُّر الكون).

وكذلك خروج الشَّمس مِن المغرب؛ حيث يطول اللَّيل على النَّاس الَّذين يتهجَّدون، يطول كثيرًا، ثمَّ يخرجون وينظرون ويعودون مرَّاتٍ متكرِّرة؛ بينما هُم كذلك إذ الشَّمس خارجة عليهم مِن جهة الغرب؛ فتسير على هذا .. حتَّى يشاهدها أكثر الأرض كلُّهم، يعلمون أنَّها خرجت مِن الغرب، يعني انعكس سَيْرها، ثمَّ بعد ذلك تعود كما كانت إلى أنْ يُنفَخ في الصُّور.

(﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]): يعني أنَّها تسير بدقَّة وإتقان بأَمْر الله

جَلَّوَعَلَا، وليس بأمرها هي؛ هي ليس لها تَصرُّف؛ وإنَّما الله جَلَّوَعَلَا هو الَّذي أَمَرها بهذا.

ولهذا قال: (﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٤]): يعني هو الَّذي خَلَق هذه الأشياء المُشاهَدة وليس معه مَن يُعاونه أو يساعده أو يشاركه في ذلك – تعالى الله وتَقَدَّس –.

(﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٤]): (العطف) هنا يدلُّ على (المغايرة)؛ فـ(الخَلْق) شيء و(الأمر) شيء.

(الأمر): الَّذي يأتي بقوله وإذنه؛ يقول للشَّيء: (كُن) فيكون، وكذلك يأمر عباده بما يشاء وينهاهم عما يشاء.

فـ(الأمر) مِن صفاته، و(الخَلْق) آثار أفعاله.

(﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٤]): (تبارك): تعاظَم؛ فهو جَلَّوَعَلَا يثني على نفسه؛ لأنَّ الخَلْق لا يستطيعون أنْ يَصِلوا إلى الثَّناء الَّذي يستحقُّه الله جَلَّوَعَلَا.

و(العالمين): كما سبق: أنَّهم الخَلْق كلهم؛ كلُّ مخلوق فهو عالَم؛ سواءً كان عاقلًا أو غير عاقل.

ثمَّ قال: (وَ(الرَّبُّ): هُوَ المَعْبُودُ): يعني أنَّه هو الَّذي يجب أنْ يُعبَد.

قوله: (﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٤])، (﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأَعْرَاف: ٥٤])، (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البَقَرَة: ٢١])؛ فهو الَّذي يجب أنْ يُعبَد؛ لأنَّه هو الَّذي يملك لهم الجزاء على العبادة، ويملك التَّعذيب إذا لم يعبدوه، وليس ذلك لأحدٍ مِن الخَلْق.

مع أنَّه هو الَّذي أَوْجَدهم، وهو الَّذي يرزقهم، ويعافيهم، ولكنَّ أكثرهم يكفر بالله جَلَّوَعَلَا.

ولهذا؛ ثَبَت في «الصَّحيح» عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أنَّه قال: «**لَا أَحَدَ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَه (مِنَ الله)**»؛ لا يوجد أحد أصبر على الأذى الَّذي يُسمَع مِن الله، «**يَتَّخِذُون لَهُ الوَلَد**» يعني في قولهم «**ثُمَّ يَرْزُقُهم وَيُعَافِيهم**» مع أنَّهم يقولون: إنَّه له ولد!

وهذه مسبَّة لله جَلَّوَعَلَا، ومع هذه المَسبَّة يرزقهم ويعافيهم.

ثمَّ قال: (وَ(الرَّبُّ): هُوَ المَعْبُودُ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البَقَرَة: ٢١])؛ لأنَّه أَمَرهم أنْ يعبدوا ربَّهم.

و(العبادة) إذا جاءت: فالمقصود بها (التَّوحيد).

وليست (العبادة) هي مجرَّد الذُّلّ، والخضوع، والرُّكوع، والسُّجود، والدُّعاء، والذَّبح، والنَّذر؛ فهذه ليست عبادة شرعيَّة حتَّى تكون خالصة، حتَّى تكون توحيدًا.

وكلُّ ما أَمَر الله جَلَّ وَعَلَا به (فِعْل ما أَمَر الله جَلَّ وَعَلَا به) خوفًا مِن الله، ورجاءً لثوابه، وتَرْك ما نهى عنه خوفًا مِن الله ورجاءً لثوابه: فهو عبادة.

فهذه هي ضابط (العبادة): فِعْل كلِّ أَمْرٍ أَمَر الله به، أو أَمَر به رسوله؛ خوفًا مِن الله، ورجاءً لثوابه، وتَرْك كلِّ شيءٍ نَهَى عنه أو نَهَى عنه رسوله؛ خوفًا مِن الله، ورجاءً لثوابه: فإنَّه عبادة.

فإذن يكون حَصْر العبادة (يعني ذِكْر أفرادها): صعب؛ لأنَّها كثيرة؛ يدخل فيها أعمال القلوب - مِن النِّيَّات، والمقاصد، ومِن الخوف والرَّجاء، والإنابة، والخشية، وما أشبه ذلك -، ويدخل فيها أعمال الجوارح، ويدخل فيها قول اللِّسان؛ فهي كثيرة جدًّا.

ولهذا؛ اختلف العلماء - كما سيأتي - في تعريفها، واختلفت عباراتهم فقط، وإلَّا المعنى واحد كما سيأتي.

(﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البَقَرَة])؛ يعني أنَّكم تعلمون أنَّ الله هو الَّذي يفعل هذه الأشياء، هو الَّذي خَلَقكم، ولم يُشاركه في خَلْقكم مُشارِك، ولم يُعاونه على ذلك مُعاوِن - تعالى الله وتقدَّس -.

وهذا شيءٌ يُقِرُّ به الخَلْق.

إذا سألت الكافر وقلت له: (مَن خلقك؟) قال: (الله)؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

وكذلك إذا سألتهم: (مَن خلق السَّماء؟ ومَن خلق الأرض؟) يُقرُّون.

وإذا سألتهم: (مَن الَّذي يُنزِل المطر ويُنبِت النَّبات؟) يقولون: (الله).

(مَن الَّذي خَلَق الأرض على هذه الصِّفة؛ جَعَلها مستقرَّة؛ يمكن المشي عليها والجلوس عليها، والانتفاع بها، ولم تكن مضطربة متحرِّكة؟)؛ ولهذا إذا حصل اضطراب ثوان هَلَك مَن عليها، إذا حصل زلزال في جهةٍ مِن الجهات فيكون الهلاك والدَّمار.

ولهذا؛ قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة]: الزِّلزال الحقيقي، وليس مِثل هذا، كلُّها بجملتها تتزلزل.

ولهذا؛ تصير الجبال كـ(العهن المنفوش) مثل الصُّوف إذا انتفش.

ثمَّ بعد ذلك تصير هباءً - مِن شدَّة الزِّلزال -، ويهلك كلُّ مَن عليها.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة]؛ وذلك إذا أَوْحَى الله جَلَّوَعَلَا إليها بذلك؛ فإذا أَوْحى إليها وأَمَرها بهذا حصل ذلك.

وأمَّا الآن: فجعلها جَلَّوَعَلَا مستقرَّة ثابتة؛ يمكن الانتفاع بها، وجَعَلها كفاتًا (أحياءً وأمواتًا)؛ يعني بطنها محل للأموات، وظهرها ذلولًا للأحياء ينتفعون بها، وكذلك يجعلون في بطنها ما يؤذيهم (بالرَّوائح وغيرها)؛ فهي مسخَّرة لهم؛ خَلَقها الله جَلَّوَعَلَا مُسخَّرة.

ومع ذلك سوف ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة:٤]، كيف تُحدِّث أخبارها؟

كلُّ مكانٍ سوف يتكلَّم؛ يقول: (فلان عَمِل عليَّ كذا وكذا) فيُصبِح شاهدًا عليه؛ إمَّا بالخير وإمَّا بالشَّر.

فيقول جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الدخان:٢٩]، السَّماء والأرض تبكي؟!

نقول: نعم؛ كما أخبر الله جَلَّوَعَلَا؛ لأنَّها تتأثَّر بالطَّاعة؛ فإذا مات صاحب الطَّاعة الَّذي يطيع الله جَلَّوَعَلَا على الأرض فإنَّها تبكيه تلك البقعة الَّتي كان يتعبَّد فيها.

وكذلك الموضع الَّذي يصعد عمله منه إلى السَّماء يبكيه؛ لأنَّه يفقد ذلك العمل الَّذي يعبد الله جَلَّوَعَلَا به، ويُسبِّحه ويذكره ويُهلِّله.

والَّذي خَلَق هذه الأشياء، وأنزل المطر، وأنبت النَّبات: هُم يعلمون أنَّه هو الله وحده، ليس معه مُشارِك؛ فلهذا جُعِل ذلك دليلًا على وجوب أنْ يعبدوه.

وقال: (﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢]).

ما دام أنَّكم تعلمون أنَّه هو وحده المتفرِّد بما ذُكِر: فيجب أنْ تفردوه بالعبادة.

وقول ابن كثير: (قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: (الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ المُسْتَحِقُّ لِلعِبَادَةِ)): يعني أنَّ هذا أمرٌ ظاهرٌ جليٌّ، دليلٌ لا خفاء فيه: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يجب أنْ يُعبَد.

ثمَّ قال: (وَأَنْوَاعُ العِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا) كثير.

الواقع: أنَّ هذا هو (الأصل الثَّاني) الَّذي سيذكره؛ أنواع العبادة كثير؛ (مِثْلُ الإِسْلَامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ)؛ وسيأتي الكلام فيه.

(وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ).

أمَّا (الدُّعاء): فمعروف؛ الاتِّجاه بالله جَلَّوَعَلَا.

والعلماء قسَّموا (الدُّعاء) إلى قسمين؛ جعلوه:

- دعاء مسألة.

- ودعاء عبادة.

أمَّا (دعاء المسألة): فكلُّ شيءٍ تطلبه مِن الله تسأله مِن أمور الدُّنيا والآخرة؛ إذا سألت شيئًا معيَّنًا: فهذا يُسمَّى (دعاء مسألة)؛ لأنَّك تُعيِّن مسألتك.

أمَّا (دعاء العبادة): فيدخل فيه هذا، ويدخل فيه: (التَّسبيح، والتَّكبير، والقراءة، والصَّلاة، والصَّدقة، وغيرها)؛ وذلك أنَّ الَّذي يقرأ – مثلًا – القرآن أو يُسبِّح ويقول: (سبحان الله، والحمد لله)، أو يصلِّي؛ يفعل ذلك راجيًا بهذا ثواب ربِّه: فهو دعاء بهذا المعنى.

فإذن يكون دعاء العبادة أعمَّ وأشمل، ولا يخرج منه شيءٌ مِن العبادة.

ودعاء العبادة لا ينكره أحد، ولكن أصحاب القبور الَّذين يعبدون القبور – أخيرًا وليس مِن السَّلف، أو أهل اللُّغة الَّذين يعرفون اللُّغة – أنكروا أنْ يكون السُّؤال عبادة؛ أنكروا أن يكون دعاء المسألة عبادة.

يعني يريدون أنْ يُبرِّروا أنَّهم إذا قالوا: (يا فلان؛ أغثنا، يا فلان؛ أعطنا كذا وكذا) وهو ميِّت: أنَّ هذا لا يكون عبادة!! هذا مقصودهم؛ وهذا مكابرة في الواقع.

وليسوا مِن أهل اللِّسان الَّذين يُرجَع إلى قولهم.

وليسوا مِن العلماء الَّذين يُعتبَر خلافهم.

وإنَّما يقولون ذلك مِن باب المغالطات، واتِّباع الهوى، واتِّباع العادات والمألوفات؛ الَّتي أَلِفوا عليها أهل بلدهم، أو مَن تلقَّوا عنه علومهم.

وهذا ليس حُجَّة؛ وإنَّما الحُجَّة: ما جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما أجمعت عليه الأُمَّة مِن علماء السَّلف.

قوله: (وَالخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ): كلُّ هذه سيأتي الكلام فيها.

ثمَّ قال: (**وَالدَّلِيلُ: قَولُهُ تَعَالَى:** ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن]):

قيل: المقصود بـ(المساجد): مواضع السُّجود مِن بدن الإنسان؛ يعني أنَّ أعضاء الإنسان نعمة مِن الله وهبها الإنسان؛ فهي له؛ يجب أنْ يُشكَر عليها وأنْ يُتعبَّد بها؛ فلا تعبدوا بها معه أحد.

وقيل: المساجد: مواضع السُّجود مِن الأرض؛ سواءً كانت مبنيَّة، ومحاطة، ومُعدَّةً لأداء العبادة، أو كانت غير مبنيَّة.

لأنَّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**جُعِلَت لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا؛ فَأَيُّ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْه الصَّلَاة فَعِنْدَه مَسْجده وطَهُوره**».

فإذن يكون (المسجد): الموضع الَّذي تسجد فيه (المكان).

فهو لله.

ومعلومٌ أنَّ المساجد المبنيَّة تُسمَّى بيوت الله؛ فهي لله، لا يملكها أحد؛ بل هي مُشاعٌ بين المسلمين؛ يؤدُّون فيها العبادة؛ فهي لله.

فما دامت لله: يجب أنْ تكون العبادة الَّتي تقع فيها: لله وحده.

لهذا قال: (﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]).

وهنا المقصود بـ(الدُّعاء): دعاء العبادة، **ويدخل فيه**: دعاء المسألة.

(فَمَنْ صَرَفَ مِنْها شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ):

هنا يقول: (مُشْرِكٌ كَافِرٌ): كأنَّ هناك فَرْق بين (الشِّرك، والكُفر).

أو أنَّ (الشِّرك) هو (الكفر).

الواقع: أنَّ الكفر يكون أعمَّ مِن الشِّرك؛ لأنَّه قد يوجد الكفر بلا شِرك؛ **فمثلًا**: اليهودي الَّذي لا يعبد الأصنام؛ وإنَّما يعبد الله ولكنَّه ما آمن بـ (محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): يكون كافرًا وإنْ لم يكن مشركًا.

وغير ذلك.

فالكُفر أعمُّ؛ ولهذا قَسَّم العلماء الكفر أقسامًا خمسة:

أحد هذه الأقسام: الشِّرك؛ جعلوا أحدها (الشِّرك)، ثمَّ قسَّموا (الشِّرك) إلى قسمين:

- شركٌ أكبر.
- وشركٌ أصغر.

ومِن أقسام (الكُفر): النِّفاق.

ثمَّ قسَّموا (النِّفاق) إلى قسمين:

- نفاق اعتقاديّ؛ وجعلوه أقسامًا ستَّة، وكلُّ واحدٍ كافٍ في كون الإنسان خارجًا مِن الدِّين الإسلام وخالدًا في النَّار.
- ونفاق عمليّ؛ وجعلوه أقسامًا خمسة.

وقالوا: إذا اجتمعت هذه الأقسام الخمسة العمليَّة في إنسان: فلا بدَّ أنْ يكون عنده نفاق اعتقاديّ؛ فيكون منافقًا خالصًا؛ كما قال الرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنْ كُنَّ فِيه كَان مُنَافِقًا خَالِصًا**»، «**وَمَنْ كَانَت فِيه خَصْلَةٌ مِنْهُن كَانَ فِيه خَصْلَة مِنَ النِّفَاق حَتَّى يَدَعَها**».

ثمَّ قالوا: قسمٌ ثالث مِن الكُفر؛ وهو كُفر الإباء والاستكبار.

وهكذا.

وهذه كلُّها سيأتي الكلام فيها إنْ شاء الله.

قال: (وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧]):

قوله هنا: (﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]): يدلُّنا على شِرك المشركين كيف كان؛ أنَّه كان عبادة الله ولكنَّه يُعبَد معه غيره، وما كانت العبادة تكون خالصة للأصنام، هذا لا يوجد، لا وجود له؛ وإنَّما كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره.

لهذا قال: (﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]).

و(الإله): هو المألوه الَّذي تألهه القلوب؛ خوفًا، ورجاء، وإنابة، وذل، وتعظيم.

تألهه القلوب: يعني تُنيب له وتحبُّه، وتذلّ له، وتُعظِّمه، وتخضع له.

(﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]): ما معنى (﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧])؟

يقولون: هذا خَرَج مَخرَج الغالب الواقع، وإلَّا كلُّ داعٍ يدعو غير الله ليس له برهان، أنَّه لا برهان؛ البرهان: هو الدَّليل الظَّاهر، فليس كلُّ دليلٍ يكون برهان؛ وإنَّما كلُّ برهانٍ دليل؛ فـ(البرهان): هو الدَّليل الجليّ الظَّاهر.

وهل على دعوة الشِّرك – شرك المشركين – برهان؟

نقول: لا؛ ولكن **المعنى** أنَّه ليس لهم برهانٌ في دعوته؛ فعلى ذلك يستحقُّون العقاب؛ لأنَّهم يدعون مع الله ما لا دليل لهم عليه.

وهذا معنى ما جاء في كثيرٍ مِن الآيات: أنَّهم لا سلطان لهم عليه – يعني حُجَّة –؛ ليس لهم عليه سلطان – على ما عبدوا ودعوا –.

وقوله: (﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]): هذا فيه تهديدٌ عظيم؛ لأنَّه ما ذُكِر ماذا يكون الحساب؛ فإنَّه عند الله جَلَّ وَعَلَا سوف يفجأه به؛ فيبدو له ما لم يكن يحتسب في ذلك المكان.

(﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]): **والفلاح**: هو الفوز بالظَّفَر المرجو.

فالكافر لن يفلح؛ فهو خاسر وخائب، وكفى به خيبةً وخِزْي أنْ يكون في جهنَّم ويبقى فيها خالدًا.

ثمَّ قال: (وَفِي الحَدِيثِ: «**الدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ**»): هذا الحديث – كما يقول علماء الجرح والتَّعديل –:

أنَّه ضعيف، وهو معروف في «التِّرمذيّ»، ولكن معناه صحيح، المعنى صحيح؛ دلَّت عليه آيات وأحاديث ثابتة.

وأصحُّ منه: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَة**»؛ هذا حديثٌ حسن.

(**وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غَافِر])، وما دام ربُّنا جَلَّ وَعَلَا أمرنا بالدُّعاء فهو عبادة.

وهذا الدُّعاء: فُسِّر بدعاء المسألة، وفُسِّر بدعاء العبادة.

فلهذا يقول بعض المفسِّرين (﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ [غَافِر: ٦٠]): أُثِبْكم، وبعضهم يقول: أعطكم.

فالَّذي يقول: (أُثِبكم) يجعله دعاء عبادة.

والَّذي يقول: (أعطكم) يجعله دعاء مسألة.

وكلُّ دعاءٍ في القرآن – كما قال ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – هو دعاء عبادة.

وقد جاء قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة:١٨٦]؛ وهذا يحتمل أنْ يكون دعاء مسألة، ويحتمل أنْ يكون دعاء عبادة.

ولكن جاء آيات أيضًا هي واضحة وظاهرة في دعاء المسألة.

وهذا لا إشكال فيه.

(﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غَافِر: ٦٠]): هنا فُسِّرت (العبادة) بـ (الدُّعاء).

و(الاستكبار عن العبادة): يعني عدم مسألة الله جَلَّ وَعَلَا؛ يستكبر عن مسألته، عن دعوته – أنْ يدعوه –.

(﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غَافِر: ٦٠]): **داخر**: يعني صاغر ذال، صاغرين ذليلين.

الدَّاخر: هو الصَّاغر الذَّليل؛ الَّذي ذَلَّ.

ثمَّ قال: (**وَدَلِيلُ (الخَوْفِ): قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آلِ عِمْرَان: ١٧٥]).

و(الخوف) هذا: المقصود به: الخوف الَّذي يكون في التَّعظيم (خوف التَّعظيم).

أمَّا (الخوف) الَّذي يكون مِن سلطة متسلِّط، مِن ظالم؛ خوفٌ أنْ يناله بظُلمه ولكنَّه لا يُعظِّمه، يخافه وقد يكون قلبه يلعنه، فهو يبغضه ويكرهه ومع ذلك يخافه لأنَّه مُسلَّطٌ عليه: فهذا لا يكون عبادة، هذا ليس مِن العبادة، هذا يقع للنَّاس كثيرًا؛ حتَّى يقع للأولياء، يخاف مِن العدو.

فهذا أخبر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأخيه ربَّهما فرعون: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه].

فقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]: يعني أنَّه يحميهما.

فالمقصود: أنَّ هذا الخوف يُسمَّى (خوف طبيعي).

وكون الإنسان يخاف مِن ظالم، أو مِن سَبُع، أو مِن حيَّة، أو ما أشبه ذلك: لا ضير عليه في ذلك.

وإنَّما الخوف الَّذي يجب أنْ يكون خالصًا لله: هو الخوف الَّذي يتضمَّن التَّعظيم؛ يخافه وهو يُعظِّمه، يخافه وهو عظيمٌ عنده؛ مثل الَّذي يحصل عند عُبَّاد الأولياء؛ يخاف أنَّه يطَّلع على ما قبله ثمَّ يعاقبه؛ هذه عبادة، هذا لا يجوز أنْ يكون إلَّا لله جَلَّ وَعَلَا.

قال: (**وَدَلِيلُ (الرَّجَاءِ): قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكَهْف]):

الرَّجاء: هو تَوقُّع الخير؛ يرجوه ويتوقَّعه أنْ يحصل له.

فتوقُّع الخير مِن الله عبادة؛ كون الإنسان يتوقَّعه مِن الله وينتظره فإنَّه عبادة؛ انتظار الخير وتوقُّعه عبادةٌ لله جَلَّ وَعَلَا؛ فهو مِن معنى أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يجلب المنافع لعباده، يجلب المنفعة لعِبادة؛ فيجب أنْ يكون ذلك خالصًا لله جَلَّ وَعَلَا.

وكلُّ إنسانٍ يرجو رحمة ربِّه، كلُّ إنسانٍ يرجو فضل ربِّه؛ يخاف مِن ذنوبه ولكنَّه يرجو عفو الله ورحمته؛ وهذا مِن أفضل العبادة؛ يجب أنْ تُخلَص لله جَلَّ وَعَلَا.

(**وَدَلِيلُ (التَّوَكُّلِ): قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المَائِدَة]):

التَّوكُّل: هو وَكْل الشَّيء إلى مَن يقوم به تمام القيام؛ تقول: (وكلت أمري إلى فلان) إذا أسندته إليه واكتفيت به.

فـ(**التَّوكُّل**): هو إسناد الأمر إلى مَن بيده القيام بذلك والاكتفاء بتصرُّفه وبفِعْله؛ وهذا مِن أفضل الأعمال، أفضل العبادة - كون الإنسان يعتمد على ربِّه -.

ولكن ليس معنى (التَّوكُّل): تَرْك فِعْل السَّبب؛ وإنَّما يفعل السَّبب ثمَّ يعتمد على ربِّه في حصول المراد سواءً مِن أمور الدُّنيا أو أمور الآخرة.

ولا يجوز أنْ يكون هذا على الإنسان، ولكن الوكالة الَّتي تكون للإنسان: هو أنْ يَكِل إليه ما يستطيع تصرُّفه؛ مِن بيعٍ، أو شراء، أو إتيان بحاجة، أو ما أشبه ذلك، أمورٍ ظاهرة يستطيع أنْ يتصرَّف فيها يصحُّ أنْ يُقال: (إنِّي وكَّلتك) أو (توكَّلت عليك في هذا الشَّيء)، يعني لا بدَّ أنْ يُحصَر ويُعيَّن.

ومع ذلك لا يجوز الاعتماد على السَّبب، هو يكون سببًا؛ فلا بدَّ أنْ يكون الاعتماد على الله جَلَّ وَعَلَا، ثمَّ فِعْل السَّبب؛ لأنَّ الله هو الَّذي سبَّب الأسباب وهو الَّذي إذا شاء عطَّلها.

(﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق:٣]): معنى (حَسْبه): يعني كَافِيه، أنَّه يكفيه.

ومَن كان الله حسبه لا يضرُّه شيء أبدًا.

ولكن هذا قد لا يتحقَّق لكلِّ إنسان؛ فلا يكون معناه أنْ يقول: (أنا توكَّلت على الله ثمَّ لم يحصل مرادي)! لأنَّ الله علَّام الغيوب، القلب قد يكون فيه شيء مِن الالتفات إلى غير الله جَلَّ وَعَلَا.

أمَّا إذا توكَّل الإنسان على ربِّه حقَّ التَّوكُّل: فلا يمكن أنْ يتخلَّف عنه مراده[٦].

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

وَدَلِيلُ (الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالخُشُوعِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأَنْبِيَاء].

وَدَلِيلُ (الخَشْيَةِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البَقَرَة:١٥٠] الآية.

---

(٦) نهاية المجلس الخامس.

وَدَلِيلُ (الإِنَابَةِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزُّمَر:٥٤].

وَدَلِيلُ (الاسْتِعَانَةِ):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة].

وَفِي الحَدِيثِ: «إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».

وَدَلِيلُ (الاسْتِعَـــــاذَةِ):

قَوْلُـــهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفَلَق].

وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [النَّاس].

وَدَلِيلُ (الاسْتِغَاثَةِ): قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٩] الآية.

وَدَلِيلُ (الذَّبْحِ):

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ [الأَنْعَام:١٦٢-١٦٣].

وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ».

وَدَلِيلُ (النَّذْرِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ ﴾ [الإِنْسَان].

الأصل الثَّانِي:

مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ

وَهُوَ الاسْتِسْلَامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ.

وَهُوَ ثَلَاثُ مَراتِبَ: الإِسْلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ.

وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

فَأَرْكَانُ الإِسْلَامِ: خَمْسَةٌ:

- شهادة أَلَّا إله إِلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله.

- وإقام الصَّلاة.

- وإيتاء الزَّكاة.

- وصوم رمضان.

- وحجُّ بيت الله الحرام.

فَـدَلِيلُ الشَّـهَادَةِ: قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [آل عِمْرَان].

وَمَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ.

(لَا إِلَهَ): نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

(إِلَّا اللهُ): مُثْبِتًا العِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ.

وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا:

قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الزُّخْرُف].

وَقَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عِمْرَان].

وَدَلِيـلُ شَـهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّـدًا رَسُـولُ اللهِ: قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التَّوْبَة].

وَمَعْنَى شَهَادَةِ (أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ): طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

وَدَلِيـلُ الصَّـلَاةِ وَالزَّكَـاةِ وَتَـفْسِيرِ التَّوْحِيـدِ: قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ [البَيِّنَة].

وَدَلِيـلُ الصِّـيَامِ: قَوْلُـهُ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البَقَرَة].

وَدَلِيلُ الحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آلِ عِمْرَان].

قَالَ الشَّارِحُ وَفَّقَهُ اللهُ:

لا نزال في أدلَّة أنواع العبادة.

وسبق أنَّ أنواع العبادة كثيرة، **وضابطها**: أنَّها كلُّ ما تُقرِّب به إلى الله جَلَّ وَعَلَا ممَّا جاء به الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ سواءً كان مِن الأعمال الظَّاهرة أو مِن أعمال القلوب.

فيدخل في ذلك: التَّوبة، والخوف، والرَّجاء، والخشية، والإنابة.

كما يدخل فيه: الصَّلاة، والذِّكر - الشَّيء الظَّاهر -، والصَّدقة، وغير ذلك.

لهذا عرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّها (اسمٌ جامع لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه؛ مِن الأقوال والأعمال الظَّاهرة والباطنة).

وعرَّفها غيره بأنَّها (ما تُقرِّب به إلى الله جَلَّ وَعَلَا شرعًا مِن غير اطِّرادٍ عرفي، ولا اقتضاءٍ عقلي).

يعني يقول: ما أَمَر به الشَّرع مِن غير اطِّرادٍ عرفي، ولا اقتضاء عقلي.

يعني أنَّ العقل لا يقتضي ذلك، والعرف ليس له علاقة بهذا؛ وإنَّما تتوقَّف على الأمر الشَّرعي.

كلُّ ما أُمِر به شرعًا: فهو عبادة.

وكلُّ ما فُعِل ممَّا جاء به الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فهو عبادة.

وعُرِّفت بأنَّها (التَّقرُّب إلى الله بغاية الذُّلِّ مع الحُبِّ والتَّعظيم).

والتَّعريفات كلُّها صحيحة، ولكن التَّعريف الأوَّل جامعٌ مانعٌ.

يعني أنَّ **العبادة**: اسمٌ جامع لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه مِن الأقوال والأفعال الظَّاهرة؛ كأفعال الجوارح؛ مِثل الذِّكر، والصَّلاة، والصَّوم، والصَّدقة، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وإزالة الأذى عن الطَّريق، وما أشبه ذلك، والباطنة؛ مِثل النِّيَّة، مثل الخوف، مثل الرَّجاء، مِثل الخشية، مِثل الإنابة، مِثل

الرَّجاء، وما أشبه ذلك، وهي كثيرة.

فإذن تتبُّع كلَّ عبادةٍ بدليل: قد يطول؛ وإنَّما تُذكَر الأمثلة فقط.

والأمثلة الَّتي جاءت في القرآن: على بعض العبادات، وليس كلِّها.

والمقصود بذِكْر هذه الأمثلة: أنْ يُبيِّن أنَّ العبادة إذا جُعِلت لغير الله: فإنَّ الإنسان يكون مشركًا.

فإذا جَعَل شيئًا مِن العبادة لغير الله فإنَّ هذا شِرك؛ لأنَّ **الشِّرك**: هو المشاركة في الشَّيء، أنْ يشارك هذا المخلوق الرَّبَّ جَلَّوَعَلَا فيما يُتَفرَّد به.

كلُّ مَن فَعَل شيئًا مِن ذلك فقد وقع في الشِّرك؛ فيكون هذا مِن الشِّرك الأكبر – نسأل الله العافية –.

فذكر بعض الأمثلة، وسبق (الدُّعاء): أنَّه عبادة، وأنَّه لا يجوز أنْ يُدعَى غير الله جَلَّوَعَلَا، ولا يجوز أنْ يقول الإنسان: (يا رسول الله؛ اشفع لي)، (يا رسول الله؛ اغفر لي ذنبي)، (يا رسول الله؛ إنِّي أشكو إليك كذا وكذا) وما أشبه ذلك؛ فإنَّ هذا لا يجوز أنْ يكون إلَّا لله جَلَّوَعَلَا.

وكذلك إذا جُعِل ذلك لوليٍّ مِن الأولياء، وما أشبه ذلك: فإنَّ هذا يكون هو الشِّرك؛ لأنَّ العبادة صُرِفت لغير الله جَلَّوَعَلَا.

وسواءً كان هذا في شيءٍ خاص أو في شيءٍ عام ممَّا يفعله الإنسان.

وذكر أنَّ التَّوكُّل مِن العبادة.

التَّوكُّل: هو الاعتماد بالقلب مع فِعل الجوارح للسَّبب الَّذي أُمِر به، أنَّه شرطٌ في الإيمان؛ لأنَّ الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المَائِدَة]: **فمعنى ذلك** أنَّه إذا لم يحصل التَّوكُّل على الله فليس الإنسان بمؤمن، ينتفي إيمانه ذلك.

والتَّوكُّل على المخلوق – حتَّى في الأمور الَّتي يقدر عليها ويستطيعها –: لا يجوز؛ وإنَّما يُوكَّل في شيءٍ ولا يُعتمَد عليه فيه – الاعتماد: على الله في حصوله – وإنْ كان قادرًا.

تقول: (أُوَكِّله بأنْ يشتري لي ويبيع) أو (يتصرَّف لي تصرُّفًا عامًّا)، ولكن لا تعتمد عليه؛ تعتمد على ربِّك جَلَّوَعَلَا في أنْ يحصل المراد؛ لأنَّه مجرَّد سبب فقط؛ يجوز أنْ يموت، يجوز أنْ يعجز، يجوز أنْ يأتيه شيءٌ يمنعه؛ فليس مِن اللَّازم أنَّه يأتي بما وُكِّل به ولو كان قادرًا عليه في الظَّاهر.

فيجب أنْ يكون التَّوكُّل على الله جَلَّوَعَلَا.

وأمَّا (الوَكَالة) الَّتي تكون للمخلوق: فهي مِن الأسباب، والأسباب لا يُعتمَد عليها – كما هو معلوم –؛ السَّبب لا يجوز أنْ يُعتمَد عليه، كما أنَّه لا يجوز أنْ يُعطَّل.

يعني يُفعَل السَّبب ولا يُعتمَد عليه في حصول المراد.

العمدة في حصول المراد: على الله جَلَّوَعَلَا.

وإنْ وُكِّل الإنسان فهو سبب.

ومِن ذلك: أنَّ الله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق:٣]، ومعنى (حَسْبه): يعني كَافِيه.

وهذا لم يأتِ في شيءٍ مِن العبادات؛ جاء (التَّوكُّل)؛ ممَّا يدلُّ على فضيلة (التَّوكُّل).

فـ(الحَسْب): هو الكافي.

ولم يذكر جزاءً مُعيَّنًا؛ وإنَّما ذكر (أنَّه حَسْبه)؛ **ومعنى ذلك** أنَّه يكفيه في كلِّ شيء؛ هذا معناه؛ لمَّا أُطلِق دَلَّ على العموم: أنَّه يكفي عبده إذا توكَّل عليه في كلِّ ما أهمَّه، في كلِّ شيء.

وهذا يدلُّ على فضيلة (التَّوكُّل)؛ فهو مِن أفضل العبادات وأعظمها؛ ولهذا جُعِل شرطًا في صحَّة الإيمان.

قال: (وَدَلِيلُ (الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالخُشُوعِ)):

الرَّغبة: هي الرَّجاء المؤكَّد؛ الَّذي معه حُب، رجاء معه حُب وخضوع لمَن يرجوه؛ وهذا لا بدَّ منه في جميع العبادات.

الخضوع – الَّذي هو الذُّلُّ المتضمِّن التَّعظيم – لا بدَّ منه في كلِّ عبادة.

فهو الرَّغبة في هذا؛ يرجو رجاءً متضمِّنًا للذُّلِّ والخضوع الَّذي معه التَّعظيم.

وكذلك (الرَّهبة): هي الخوف.

وتقدَّم أنَّ الخوف مِن العبادة.

ولكن الرَّهبة تتضمَّن خوف القلب.

أمَّا الخوف – الَّذي مُطلَق الخوف – فهو أعم مِن الرَّهبة.

خوف القلب الَّذي يُسمِّيه النَّاس (خوف السِّرِّ)، يعني أنَّه في سِرِّ الإنسان.

وعُبَّاد القبور يقولون: (فلان فيه سِر) يقصدون أنَّ الوليَّ يطَّلع على ما في القلب، وأنَّه يتصرَّف في ذلك؛ فقد يُعاقِب وقد يُثيب! وهذا مِن أعظم الشِّرك بالله جَلَّ وَعَلَا.

مَن حصل له شيءٌ مِن ذلك فهو مشرك؛ لأنَّ هذا خاصٌّ بالله جَلَّ وَعَلَا؛ الاطِّلاع على ما في القلب، والخوف الغيبي – أنْ يخافه وهو غائبٌ عنه، يعني ما يراه –: هذا خاصٌّ بالله جَلَّ وَعَلَا؛ يجب أنْ يكون خالصًا لله جَلَّ وَعَلَا، وألَّا يكون لأحدٍ مِن الخَلْق فيه شيء.

الخشوع: أيضًا هو خوف القلب، وهو قريبٌ مِن الخوف، ولكنَّه أبلغ؛ لأنَّه يكون في القلب، ويكون في البصر، ويكون في السَّمع؛ هذا هو الخشوع.

يكون في القلب.

ويكون في العين؛ بأنْ تذرف وتدمع.

ويكون في السَّمع؛ بأنْ يخشع؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨].

أمَّا الخوف: فهو أعمُّ مِن هذا.

والدَّليل: هو (قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠]) يعني الأنبياء المذكورين في هذه السُّورة؛ فإنَّه عَدَّد الأنبياء، وذَكَر لكلِّ نبيٍّ دعوة مِن العبادات الَّتي يتقرَّب بها إلى ربِّه جَلَّ وَعَلَا.

ذكر أنَّ نوح ناداه في الكَرْب، وأنَّه نجَّاه مِن كَرْبه، وأهلك عدوَّه، أغرقه، ونجَّاه هو ومَن معه.

وذكر إبراهيم وأنَّه نجَّاه مِن قومه الَّذين أرادوا به الكيد حينما قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء] إلى آخر القصَّة.

فإنَّهم لمَّا عادوا ووجدوا أصنامهم مُحطَّمة بحثوا عن الفاعل فجاؤوا بإبراهيم وأقاموا عليه البيِّنة: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء].

المقصود: أنَّهم جمعوا حَطَبًا كثيرًا عظيمًا، فأَجَّجوه نارًا لينتصروا لآلهتهم، ثمَّ قذفوا إبراهيم في النَّار؛ فقال الله جَلَّ وَعَلَا للنَّار: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩] فأصبحت روضة خضراء يصلِّي ويعبد ربَّه فيها.

فجعل الله كيد الكافرين باطلًا، وجعلهم الأخسرين؛ فنَصَره على هؤلاء الظَّلمة.

وكذلك لوط لمَّا وقع في الكَرْب حينما جاءت الملائمة بصورة شبابٍ حِسان الوجوه، وقد فُتِن هؤلاء بإتيان الذُّكور بفاحشة نَتْنَى قبيحة، ما سبقهم إليها أحد مِن النَّاس.

فلمَّا رأوا أضيافه تسارعوا إليه، جاؤوا إليه يهرعون، مسرعين، فأخذ يحاول معهم ويقول: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٨]؛ فحاول بكلِّ ما أمكنه ما استطاع؛ عند ذلك ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود].

يقول ذلك لشدَّة ما وقع فيه؛ فإنَّه كان في يومٍ عصيب وشدَّة: كيف يفعلون الفاحشة في أضيافه؟! وما علم أنَّهم ملائكة.

لمَّا وصل إلى هذا الحَد أخبره جبريل – وهو معهم – قال: ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ﴾ [هود:٨١]، نحن رُسل الله، لن يَصِلوا إليك.

فأومأ بجناحه وطَمَس أعينهم فأعماهم، أصبحوا عُمْي لا يرون.

فلم يكتفِ لوط بهذا، قال: (أريد هلاكهم آجلًا).

فقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ﴾ [هود:٨١]، الصُّبح بعيد؛ قال له: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١].

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود:٨١] يعني إليهم؛ لئلَّا يصيبكم ما أصابهم.

فالمقصود: أنَّ الله نصره في هذا الموطن الحَرِج.

ثمَّ كذلك ذكر موسى، وهارون: أنَّه نجَّاهما مِن كيد فرعون.

وذكر ذي النُّون؛ حيث وقع في كَرْبٍ عظيم؛ أُلقي في البحر فالتقمه الحوت، فأصبح في ظلمات البحر وظلمات بطن الحوت؛ عند ذلك نادى ربَّه قائلًا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]؛ فنجَّاه الله جَلَّوَعَلَا وأخرجه مِن بطن الحوت إلى البَرِّ.

وكذلك أيُّوب؛ قال: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء]؛ فاستجاب الله له.

وكذلك زكريَّا؛ قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء:٨٩].

إلى آخر الأنبياء الَّذين ذكرهم.

ثمَّ بعد ذلك قال: (﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء])؛ فأثنى عليهم بأنَّهم يدعونه راغبين خائفين، ويكون مع الدُّعاء خشوع؛ خشوع القلب، وخشوع الأبصار، وخشوع السَّمع.

والله جَلَّوَعَلَا يُثني على عِباده بما هو محبوبٌ له.

والمحبوب له هو العبادة؛ فدلَّ هذا على أنَّ هذا مِن أفضل العبادة.

فمَن صرف شيئًا مِن ذلك لغير الله جَلَّوَعَلَا: فيكون مشركًا.

والأدلَّة على هذا: كثيرة، ولكن المقصود: التَّمثيل فقط، الأمثلة.

ثمَّ قال: (وَدَلِيلُ (الخَشْيَةِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ [البقرة:١٥٠]).

و(الخشية) أيضًا قريبة مِن (الخوف) إلَّا أنَّها تكون أخص مِن (الخوف العام)، أنَّها تكون في شيءٍ خاص.

وهذه الخشية تكون في جميع الأشياء، ليست في شيءٍ معيَّن؛ يجب أنْ يكون المَخشيُّ هو الله جَلَّوَعَلَا، ولا يُخشَى مخلوق مِن المخلوقات؛ لأنَّ المخلوق ناصيته بيد الله جَلَّوَعَلَا؛ يتصرَّف الله جَلَّوَعَلَا

فيه كيف يشاء.

ولن يستطيع أنْ يستقلَّ بشيءٍ إلَّا بإذن الله؛ فلا يستطيع أنْ يضرَّ أو ينفع إلَّا بإذن الله جَلَّوَعَلَا.

فإذا أخلص الإنسان خشيته لربِّه جَلَّوَعَلَا: فإنَّه يكفيه ما أهمَّه.

وكذلك (الإنابة)، **والإنابة**: هي الرُّجوع مع العمل، رجوع بعبادة، عمل يتضمَّن الذُّلَّ والتَّعظيم.

أناب: إذا خَضَع وذَلَّ راجعًا إلى ربَّه جَلَّوَعَلَا.

(﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزُّمَر: ٥٤]): فهو يأمر جَلَّوَعَلَا بالإنابة.

و(الإنابة) أخصُّ مِن (الإسلام):

- لأنَّ (الإسلام) أَمْر عام – كما سيأتي -؛ وهو الاستسلام والانقياد لله عمومًا.

- أمَّا (الإنابة): فهي أبلغ مِن ذلك.

قال: (**وَدَلِيلُ (الاسْتِعَانَةِ)**:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفَاتِحَة])؛ وهذا يجمع العبادة كلَّها؛ كلُّ العبادة تجتمع في معنى هذه الآية: (﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفَاتِحَة]).

لأنَّ (العبادة) مثلما سبق: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبُّه الله ويرضاه مِن الأقوال والأفعال؛ الظَّاهرة – الَّتي تكون في الجوارح -، والباطنة – الَّتي تكون في القلب -.

و(﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]): يعني العبادة كلُّها لك؛ لأنَّ تقديم الضَّمير (إيَّاك) - الَّذي يُسمَّى معمولًا – على العامل – الَّذي هو ((﴿نَعۡبُدُ ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]) يدلُّ على أنَّ العبادة يجب أنْ تُحصَر في المُقدَّم، لا يجوز أنْ تكون لغيره.

(﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]): فهذا يعطي معنى (لا نعبد إلَّا أنت)، (لا نعبد إلَّا إيَّاك).

وكذلك (﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]) مثلها؛ تدلُّ على أنَّ الاستعانة يجب أنْ تكون بالله وحده، والعبادة تكون بالله وحده.

وكون هذا يجمع العبادة كلَّها: أنَّ العبادة تكون في الشَّيء الَّذي أَمَر الله جَلَّوَعَلَا به، ولا تحصل العبادة

مِن الإنسان إلَّا إذا حصل العون له مِن ربِّه جَلَّوَعَلَا.

وهذا يدلُّنا على أنَّ العبد لا حول له ولا طَول؛ وإنَّما الأمور كلُّها بيد الله؛ إذا مَنَّ الله جَلَّوَعَلَا على عبده فأعانه وهداه: فهو فضله؛ والفضل لله ابتداءً واستدامةً ونهاية.

فمَن وَجَدَ أنَّه عابدًا لله فليشكر ربَّه؛ لأنَّ هذا فضل الله، وأنَّه ليس مِن عنده شيء؛ لو أنَّ الله جَلَّوَعَلَا مَنَع عنه فضله لهَلك.

لهذا؛ لا تنفكُّ (العبادة) عن (الاستعانة)؛ لا بدَّ لـ (العبادة) مِن (استعانة).

فإذا لم تحصل الاستعانة ما حصلت العبادة، لا توجد.

(﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]).

ولِعِظَم هذه العبادة وهذا الأمر أوجب الله جَلَّوَعَلَا ذلك علينا: أنْ ندعوه به في كلِّ ركعة مِن ركعات الصَّلاة؛ وهذا مِن رحمة الله جَلَّوَعَلَا، مِن رحمته بنا؛ لأنَّه يعلم حاجتنا إليه، ومسيس الحاجة.

ولكن يجب أنْ يفهم الإنسان الشَّيء الَّذي يردِّده في صلاته: (﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]): يعني العبادة تكون لك، فإذا حصلت مِنَّة فهي بعونك.

ومعنى ذلك: أنَّ الفضل لك، وأنَّنا لا نستطيع أنْ نأتي بشُكر نعمتك؛ لأنَّ الشُّكر نفسه نعمة؛ فـ (ركوع العبادة) نعمة، وشُكره عليها نعمة؛ فكيف يأتي الإنسان بـ (حقِّ الله)؟! كيف يستطيع؟! لا يستطيع أبدًا، ولكن يكفي أنْ يعترف لله جَلَّوَعَلَا بالتَّقصير، يعترف له بالفضل وأنَّه مُقصِّر في حقِّه.

ولهذا؛ يقول الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إنَّ سيِّد الاستغفار: أنْ يقول العبد: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَه إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي، وَأَنَا عَبْدُك، عَلَى عَهْدِك وَوَعْدتك مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي؛ فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِر الذُّنُوب إِلَّا أَنْت**».

يقول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: هذا سيِّد الاستغفار.

سيِّد الشَّيء ومُقدَّمه: عظيمه.

ومعنى (**أَبُوءُ لَكَ**): يعني أعترف لك بذلك، (**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ**): أعترف بنعمتك عليَّ وأنِّي لا أستطيع القيام بشُكرك.

(**وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**): يعني أعترف بذنبي (أنَّني مذنِب)، ولا أستطيع أنْ آتي بالشَّيء الَّذي يُخلِّصني مِن ذنبي؛ وإنَّما هو فضلك؛ فضلك إذا تَفضَّلت عليَّ وعفوت عنِّي فهو فضلك.

فقوله: (﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]): يقول العلماء: هذه الآية جمعت معاني كتاب الله، جمعت معاني الكتاب كلها؛ جُمِعت في هذه الجملة؛ لأنَّ المقصود بإنزال الكتاب: الأمر بالعبادة، بعبادة الله جَلَّوَعَلَا.

والعبادة تكون بالاستعانة، والاستعانة تكون في الأمور العامَّة والخاصَّة كلها، يجب أنْ يكون ذلك لله.

فإنْ كانت لغير الله ضاع الإنسان وضلَّ ووُكِل إلى ذلك الَّذي استعان به.

ومَن وُكِل إلى مخلوق: فقد وُكِل إلى ضَيعة، وُكِل إلى .. وضَيْعة.

وإنْ ظهر أنه في وقتٍ مِن الأوقات يتحصَّل على مطلوبه: فهذا لا يدوم أبدًا، وسوف ينتهي.

والمقصود: أنَّ دليل الاستعانة والعبادة: عامَّة في هذه الآية (﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]).

قوله: (وَفِي الحَدِيثِ: «**إِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ**»): هذه جملة مِن حديثٍ رواه التِّرمذيُّ، والإمام أحمد في «المسند»، وغيره معه، عن ابن عبَّاس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عن النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أنَّ الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال له: «**يَا غُلَام؛ أُعَلِّمُك كَلِمَات يَنْفَعُكَ الله بِهِنَّ: احْفَظ الله يَحْفَظْك، احْفَظ الله تَجِده تجَاهك، تَعَرَّف إِلَى الله فِي الرَّخَاء يَعْرِفك فِي الشِّدَّة، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِن بالله**».

ومعنى (احْفَظ الله): احفظ أوامر الله؛ احفظها أنْ تُضيِّعها، واحفظ حدود الله (محارمه) أنْ تقع فيها؛ هذا معناه، وإلَّا فالله هو الحافظ جَلَّوَعَلَا؛ يحفظ الخَلْق.

ويحفظ الإنسان اللهَ: في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

وهذه كلمات مِن أنفع ما ينبغي للإنسان أنْ يعتني به؛ كلمات خرجت مِن مشكاة النُّبوَّة، مِن الوَحْي: «**احْفَظ الله يَحْفَظْك**».

وحِفظ الله جَلَّوَعَلَا للعبد: يكون جزاءً لحِفظه؛ **وهو ينقسم إلى قسمين**:

- حِفظٌ خاص.

- وحِفظ عام.

أمَّا (حِفظه الخاص): فهو حِفظه لأوليائه في أديانهم وقلوبهم، ما ينصرفون عن دينهم ولا تتغيَّر قلوبهم بالصُّدود عن الله جَلَّوَعَلَا؛ يحفظ ذلك عليهم.

وأمَّا (العام): فهو في أبدانهم، وأموالهم وغيرها، وأولادهم وغيرها؛ وهذا أسهل، فهذا سهل.

ولكن الأوَّل هو المهم.

وعادة الله جَلَّوَعَلَا: أنَّه يجعل الجزاء مِن جنس العمل.

فمَن حَفِظ حدود الله، وحَفِظ واجبات الله = حَفِظه الله جَلَّوَعَلَا.

أمَّا إذا ضَيَّع ذلك فإنَّه يُضيَّع، يَضِيع؛ تجده في آخر عمره لا يعرف ربَّه، ولا يعرف أين يتَّجه، ولا يعرف كيف يتصرَّف.

وليس معنى ذلك: أنَّ الإنسان إذا أغدقت عليه الدُّنيا وحصل له مراده في الدُّنيا أنَّه يكون محفوظًا، كلَّا، ليس هذا.

الدُّنيا سهلة، ستمضي وتنتهي على كلِّ حال.

ولكن المصيبة إذا كان الإنسان خرج منها وليس معه دينٌ يَدين الله به؛ هذه هي المصيبة.

وكذلك قوله: «**تَعَرَّف إِلَى الله فِي الرَّخَاء يَعْرِفك فِي الشِّدَّة**»: ومعنى «**تَعَرَّف إِلَى الله فِي الرَّخَاء**»: يعني أقبِل على الله بالدُّعاء والعبادة؛ بفِعْل المأمور الَّذي أمرك لله جَلَّوَعَلَا به وزيادة – مِن النَّوافل وغيرها –، تعرَّف إليه بذلك؛ لأنَّ بحاجة إلى ذلك أشدَّ الحاجة.

و«**يَعْرِفك فِي الشِّدَّة**»: يعني أنَّ الإنسان الَّذي يكون مُديمًا الإقبال على ربِّه وذِكْره وعبادته: أنَّه إذا وقع في شِدَّة: أنَّه يجعل الله جَلَّوَعَلَا له فَرَجًا ومَخرجًا منها، بخلاف الَّذي لا يعرف ربَّه إلَّا في الشَّدائد؛ فهذا قد يُجاب وقد لا يُجاب.

ثمَّ كذلك قوله: «**وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِن بالله**»: أيضًا مِن الأمور المهمَّة؛ لأنَّ (الاستعانة) عبادة؛ فيجب أنْ تكون خاصَّة بالله جَلَّوَعَلَا؛ كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]: يعني حَصَر (الاستعانة)

في الله جَلَّوَعَلَا.

قال: (وَدَلِيلُ (الاسْتِعَاذَةِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفَلَق]).

و(الفلق): يعني الفالِق الإصباح، ومُخلِّص اللَّيل بالنَّهار؛ لأنَّه لو شاء لجَعَل الوقت كلَّه ليلًا، ولو شاء لَجعل الوقت كلَّه نهارًا.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ [القصص:٧١]؟! وكذلك بالعكس.

فالله جَلَّوَعَلَا هو الَّذي يتفضَّل على عباده بما يحتاجون إليه؛ جَعَل لهم اللَّيل يسكنون فيه ويرتاحون، وجَعل لهم النَّهار طلبًا للمعيشة والتَّصرُّف؛ فضلًا منه ونعمة ورحمة.

فهو فالق الإصباح.

و(الفَلق): هو الفِعل.

ومجيء ذلك: تفسيره لـ (الفلق) بـ (القمر): هذا تفسيرٌ جزئي، تفسيرٌ بجزء المعنى؛ كما هي عادة السَّلف.

وقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ [الفلق].

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق]: يعني مِن شرِّ المخلوق.

والعلماء استدلُّوا بهذا على أنَّ (الشَّرَّ) لا يجوز أنْ يُضاف إلى الله جَلَّوَعَلَا؛ وإنَّما الشَّر في المخلوق.

أمَّا فِعْل الله جَلَّوَعَلَا: فكلُّه خير؛ لا يفعل فِعْلًا يكون شَرًّا؛ وإنَّما هو خير.

إنْ كان فيه شَر فهو جزئي (يعني نسبي)، وإلَّا فهو خيرٌ.

يعني معاقبة مَن يستحقُّ العقاب: يكون شَرًّا بالنِّسبة له، وهو خيرٌ للمؤمنين، وخيرٌ لعباد الله جَلَّوَعَلَا، وخيره أكثر.

كما أنَّ نزول المطر قد يكون فيه شرٌّ لبعض الأفراد؛ كأنْ يهدم بيته، أو يُغرِق ماله وما أشبه ذلك، ولكنَّ خيره عام؛ فهو خير.

فإذا وُجِد فيه شرٌّ جزئي: فهو نسبي؛ لا معنى له.

وكلُّ ما يفعله الله جَلَّوَعَلَا خير، بخلاف المخلوق؛ فإنَّ المخلوق فيه الشَّرّ؛ ولهذا قال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾[الفلق]: يعني (مِن شر الَّذي خلق).

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾﴾[الفلق]: الغاسق: الشَّر.

فكلُّ شرٍّ فهو غاسق.

أمَّا تسمية (نَهْش الحيَّة) غاسق، ونحو ذلك: فهذا جزئي.

وإنَّما المقصود: الشَّر مطلقًا.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾[الفلق:٣]: يعني مِن شَرِّ الشَّر؛ الشَّر الَّذي كلُّ ما فيه شر؛ سواءً كان بفِعْل المخلوق أو كان كامن فيه، أو في غير ذلك.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾[الفلق]: النَّفَّاثات: السَّواحر؛ الَّتي تعقد العُقدة ثمَّ تنفث فيها؛ فينعقد السِّحر الَّذي تريده.

وقال: (النَّفَّاثات) لأنَّ الأكثر: أنَّ السِّحر يقع مِن النِّساء، يقع فيهنَّ، وقد يقع مِن الرِّجال، ولكن النِّساء: أكثر.

ولذا قال: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾[الفلق:٤]: النَّفَّاثات: السَّواحر؛ فهي تأتي بخيط (بحبل) ثمَّ تعقد عُقدة ثمَّ تنفث عليها (تتفل عليها) بريقها النَّجِس الخبيث المختلط مع عبادة الشَّيطان والاستعانة به، وطلب العون مِن الشَّيطان بعدما عبدته؛ فينعقد بإذن الله الكوني القَدَري ما أرادته مِن أذى المسحور.

وحلُّه: بالاستعاذة بهذه الآيات الكريمات؛ يُحلُّ بإذن الله بها.

لهذا؛ لمَّا سُحِر الرَّسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ استعاذ بهذه الآيات ففَكَّ الله جَلَّوَعَلَا سِحْره، وهكذا إذا فَعَل الإنسان.

وإنْ لم يكن في أوَّل وهلة يكون في المرَّة الثَّانية والثَّالثة والرَّابعة والتَّكرار؛ فيزول بإذن الله.

قال: (﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ [النَّاس]):

رَبّ: هو المَلِك المتصرِّف.

و(النَّاس) عقلاء؛ فلا يجوز أنْ يُقال: (لهم رب) إلَّا الله جَلَّ وَعَلَا، لا يجوز أنْ يضاف إليهم رب إلَّا الله جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّهم عقلاء.

ويُقال (ربُّ الدَّار، وربَّ الدَّابة) لمخلوق مِن المخلوقات.

ثمَّ قال بعد هذا: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾ [الناس]: يعني الَّذي يملكهم؛ فهو مالك لنواصيهم؛ إذا شاء أنْ يتصرَّف فيهم تصرَّف كيف يشاء، وما ذلك على الله بعزيز، سهل، هيِّن.

ثمَّ قال: ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس]: يعني (مألوههم) الَّذي يألهونه ويعبدونه؛ وهذا مِن الأدلَّة على أقسام التَّوحيد، **وأنَّه أقسام ثلاثة:**

- توحيد العبادة (التَّألُّه).
- وتوحيد الرُّبوبيَّة (التَّصرُّف).
- وتوحيد الأسماء والصِّفات؛ الَّذي هو قريبٌ مِن (توحيد الرُّبوبيَّة) ولكنَّه يكون بأسمائه؛ بأنْ يُدعَى بها وتُثبَت له بلا مُشارِكٌ له فيها جَلَّ وَعَلَا.

فالمقصود: الاستعاذة به جَلَّ وَعَلَا: أنَّها يجب أنْ تكون به فقط، ولا تجوز الاستعاذة بمخلوق.

الاستعاذة مِن العبادات الَّتي يجب إخلاصها لله جَلَّ وَعَلَا.

قال: (**وَدَلِيلُ (الاسْتِغَاثَةِ): قَولُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾** [الأنفال:٩]): هذا مِنَّةٌ عليهم؛ حيث ذكر فضله، وذكر أنَّهم استغاثوا بربِّهم، وأثنى عليهم بذلك؛ فدلَّ على أنَّها عبادة.

و(الاستغاثة): هي نوعٌ مِن الدُّعاء، ولكنَّها دعاء المكروب، دعاءٌ مِن مكروبٍ وقع في كَرْب؛ يُسمَّى (استغاثة)، يستغيث؛ طَلَب الغَوْث.

والغَوْث: هو إنجاء مَن وقع في الشِّدَّة، إخراجه مِن الشِّدَّة الَّتي وقع فيها.

فيجب أنْ يكون ذلك خاصًّا بالله جَلَّ وَعَلَا.

قال: (**وَدَلِيلُ (الذَّبْحِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٦٢﴾** [الأنعام]).

و(**الصَّلاة**) **المقصود بها**: الرُّكوع والسُّجود، والدُّعاء، **ويدخل فيها**: غيرها مِن العبادات.

و(**النُّسُك**): يُقصَد بها الذَّبيحة الَّتي تُذبَح لله؛ مثل الأضحية، والهَدْي، والعقيقة، وما أشبه ذلك.

أمَّا الَّتي تُذبَح لأَكْلها، لـ (اللَّحم؛ لأجل أَكْلها): فهذه تُسمَّى (نَسِيكة لحم)، ومع ذلك لا بدَّ أنْ يكون فيها عبادة وإلَّا تكون مُحرَّمة، لا بدَّ أنْ يُسمِّي عليها عند ذَبْحها، أنْ يذكر اسم الله، وأنْ تكون مِن مسلم.

أمَّا إذا كانت مِن غير مسلم ولو سمَّى: فهي مُحرَّمة.

إذن وإنْ كانت للحم: فإنَّ فيها نوعٌ مِن العبادة؛ يجب أنْ تكون فيها عبادة لله جَلَّ وَعَلَا.

وهذا مِن معاني قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]؛ مِن معانيه: أنْ يُذكَر اسم الله جَلَّ وَعَلَا عليها؛ فيكون حلالًا لذلك؛ لأنَّ ذلك تَعبُّد.

ومعنى ذلك: أنَّ الذَّبيحة إذا ذُبِحت لمخلوقٍ – كالَّتي تُذبَح عند القبر؛ تعظيمًا لصاحبه، أو تُذبَح للنَّجم، أو تُذبَّح للجِنِّي؛ كأنْ يقول الجن: اذبح هذه الذَّبيحة ليطيب مريضك، أو يقوله الكاهن – وإنْ ذكر عليها اسم الله: فهي شِرك، ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٧٣].

كذلك الَّتي تُذبَح عند النَّصارى للمسيح أو غيره: فهذا مِن الشِّرك الأكبر.

والذَّبيحة لها أثرٌ في القلب – يعني النُّسُك –، أثرٌ عظيم؛ يُتقرَّب بها إلى الله؛ ولهذا قُرِنت مع (الصَّلاة) في عدَّة آيات:

(﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام:١٦٢]): يعني مقرونة معها.

فدلَّ ذلك على أنَّها مِن أعظم العبادات؛ يجب أنْ تُخلَص لله جَلَّ وَعَلَا؛ فإذا وقعت لغير الله: فهو شِرك.

وأمَّا قوله: (﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]): يعني العمل الَّذي أحيا عليه؛ يعني أنِّي ما خُلِقت إلَّا لعبادة الله؛ فأنا كلُّ حياتي تعبُّدًا وتقرُّبًا إلى الله جَلَّ وَعَلَا؛ كلُّ عمل أعمله في حياتي عبادة وتقرُّبًا لله جَلَّ وَعَلَا.

وكذلك مماتي؛ يعني أموت على الرَّجاء والخوف وعبادة ربِّي جَلَّ وَعَلَا؛ إنِّي راجعٌ إليه، أطلب جزاءه وأدعوه أنْ يرحمني، وأنْ يعفو عنِّي ويتفضَّل عليَّ؛ هذا معنى (﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

[الأنعام:١٦٢]).

وهذا أَمَره جَلَّ وَعَلَا أنْ يقوله، وأُمَّته تَبَعٌ له في ذلك؛ يجب أنْ تكون تابعة.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر]: يعني اجعل الصَّلاة لله، والنَّحيرة (الَّتي هي الذَّبيحة) لله.

قال: (وَمِنَ السُّنَّةِ): يعني دليل أنَّ الذَّبح يجب أنْ يكون لله خالصًا وأنَّه عبادة: («لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيرِ اللهِ»).

واللَّعن: هو الطَّرد مِن الرَّحمة والإبعاد.

والله يلعن مَن يشاء، كما أنَّه يصلِّي على مَن يشاء؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب:٥٦]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب:٤٣]: يعني يصلِّي على المؤمنين.

و(صلاة الله) معناها: ثناؤه على عبده عند الملائكة؛ هذه صلاته، هذا القول الصَّواب فيها.

أمَّا (الصَّلاة مِن الملائكة): فهي الاستغفار والدُّعاء، يقول: (اللَّهمَّ اغفر له، اللَّهمَّ ارحمه)، وكذلك مِن الآدميين.

(اللَّعن): ضدُّ ذلك؛ (اللَّعن): ضدُّ هذا.

والله يلعن مَن يشاء، ومَن لَعَنه فقد بَعُد عن مظانِّ الخير كلِّه؛ فالملعون: هو البعيد عن الرَّحمة؛ نسأل الله العافية.

الله يلعن مَن يشاء مِن عباده حقيقةً، كما أنَّه يُصلِّي على مَن يشاء مِن عباده، ويفعل ما يشاء، والفضل بيده، وهو الحكم العدل؛ إذا لعن فلَعْنه على مَن يستحقُّ.

قال: (وَدَلِيلُ (النَّذْرِ): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان]).

وجه ذلك (وَجْه الدَّليل): أنَّ الله أثنى على هؤلاء الَّذين يوفون بالنَّذر ومَدَحهم، والله لا يثني على النَّائم الكثير النَّوم، ولا على الآكل (الَّذي يأكل كثيرًا)، ولا على الَّذي يخرج يتفرَّج ويتنزَّه؛ يعني الأمور المباحة لا يُثني عليها جَلَّ وَعَلَا؛ لأنَّها ليست عبادة؛ وإنَّما يُثني على مَن يفعل شيئًا يحبُّه الله جَلَّ وَعَلَا.

فدلَّ هذا على أنَّ الوفاء بالنَّذر عبادة.

و(النَّذر) في أصله: هو الإيجاب؛ يقولون: (نذرت دم فلان) إذا أوجبت قَتْله؛ هكذا يقول العرب، وهذا معروف في أشعارهم وكلامهم.

وهو إيجاب عبادةٍ لم تكن واجبة، أنْ يُوجِب الإنسان على نفسه عبادة ليست واجبة، وهو في الأصل مكروه، يعني إنشاؤه مكروه؛ لأنَّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**النَّذْرُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ**» مطلقًا لا يأتي بخير؛ «**وإنَّما يُستخرَج به مِن مال البخيل**»؛ فلا ينبغي للعبد أنْ يدخل في النُّذور.

والنَّذر لا يُقدِّم ولا يؤخِّر؛ بعض النَّاس يتصوَّر أنَّه إذا نذر شيئًا أنَّه يحصل له ذلك الشَّيء؛ مثل أنْ يقول: (إنْ نجحت لله عليَّ أنْ أذبح بعيرًا)؛ يتصوَّر أنَّ هذا يكون له أثرًا في نجاحه، **والواقع**: أنَّه لا أثر له أبدًا؛ فإنْ الله قد قَدَّر نجاحك سوف تنجح؛ نذرت أو ما نذرت.

وإنَّما يُوقِع الإنسان في حرج، وقد يُوقعه في ذَنب؛ لأنَّه إذا حصل له مطلوبه يثقل عليه الوفاء بالنَّذر، وقد يعجز عنه؛ فيكون آثمًا؛ لأنَّه تَرَك شيئًا أوجبه على نفسه.

وهو عبادة، ولا بدَّ أنْ تكون عبادة، أمَّا إذا نَذَر: أنَّه يأكل هذا الشَّيء: هذا لا يوفِ به؛ لأنَّ هذا ليس بنَذْر، فهو ليس بعبادة.

أو نَذَر أنْ يطلع في هذا الجبل إذا حصل له كذا، أو أنْ يذهب إلى البلد الفلاني: فهذا لا يفي به؛ لأنَّه ليس عبادة.

وإنَّما النَّذر الَّذي يجب أنْ يُوفَى به: ما كان عبادةً؛ كـ(الذَّبح لله)؛ يذبح الذَّبيحة ويُوزِّعها على الفقراء، أو يُجهزِّها ويدعوهم لها يأكلوها؛ فهذا يجب الوفاء به.

والمقصود: أنَّ النَّاذر يتصوَّر– كثيرٌ منهم – أنَّه إذا نَذَر إن الله شفا مريضه أنْ يتصدَّق بكذا وكذا، أو أنْ يصوم كذا وكذا، أو أنْ يذبح كذا وكذا: فهو يتصوَّر أنَّ هذا النَّذر يكون له أثر في شفاء مريضه، وهذا ليس كذلك؛ فلا أثر له؛ الله سوف يُوقِع ما قدَّره؛ نذرت أو لم تنذر.

فالنَّذر لا يأتي بخير؛ كما قال الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلا ينبغي للإنسان أنْ يفعله، ولكن إذا وقع منه وَجَب عليه الوفاء به.

فالله يُثني على عباده الَّذين إذا وقعت منه النُّذور سارعوا إلى الوفاء بها؛ (﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان]) وهو يوم القيامة.

قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:٢٧٠]: يعني إنَّ الله سيجازيكم به، إنَّه عليم.

في ضمن قوله: ﴿يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:٢٧٠]: يعني (سيجازيكم).

هذا (الأصل الأوَّل) وهو معرفة الله جَلَّ وَعَلَا.

وقلنا: إنَّ ذِكْر أنواع العبادات جاء استطرادًا، وإلَّا فالأصل: هو معرفة الله: أنَّ الله هو الَّذي يجب أنْ يُعبَد، ومعرفته: بالأدلَّة.

وسبقت (الأدلَّة): أنَّها تكون (أدلَّة عقليَّة)، و(أدلَّة خَلْقيَّة)، و(أدلَّة فطريَّة) تكون في فطرة الإنسان وفي المخلوقات.

فعلى الله جَلَّ وَعَلَا دلائل عليه، وكذلك العقول، العقل يدلُّ على ذلك؛ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور].

وسبق الإشارة إلى هذا.

ثمَّ قال: (**الأصل الثَّاني**) الإسلام، الدِّين: (**مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ**): أنْ يعرف الإنسان الدِّينَ الَّذي جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومعرفة هذا: فرض عين على كلِّ عبد، ولكن ليست في كلِّ شيء؛ في الشَّيء الواجب عليه؛ مثل (الصَّلاة)، ومثل كونه يجب أنْ يعبد الله وحده، ما تكون العبادة لغير الله، ومثل (الصَّوم) الواجب عليه، ومثل (الحج) الواجب عليه، وما يلزم لذلك مِن الوضوء، والسِّتر، وما أشبه هذا.

فإذا كان عنده مال: وَجَب أنْ يعرف الزَّكاة، وأين يضعها، يعني كيف يُخرِجها، ما القَدْر الَّذي يُخرَج، وما صفة ذلك، وأين يضعه.

فإنْ قصَّر في هذا فهو آثم.

وكذلك يجب عليه أنْ يعرف أنَّ الله حرَّم الزِّنى، وحرَّم الرِّبا، وحرَّم قَتْل النُّفوس، ونَهْب الأموال، وما أشبه ذلك مِن المحرَّمات الظَّاهرة البيِّنة، لا يجوز أنْ يجهل هذا.

فإنْ جَهِل ذلك فقد قَصَّر فيما وَجَب عليه، وأمره إلى الله؛ إنْ شاء عذَّبه، وإنْ شاء عفا عنه.

يعني أنَّ (معرفة الدِّين الإسلامي) تكون خاصَّة وعامَّة:

- فتكون عامَّةً على كلِّ فرد في الشَّيء الَّذي يلزم ذلك الفرد (يلزمه، يجب عليه).

- وتكون على بعض الخاصَّة - مِن خواص النَّاس مثل العلماء -: ألَّا يجهلوا شيئًا ممَّا جاء به الرَّسول؛ يجب أنْ يعرفوه ولا يفوتهم شيئًا، وليس على كلِّ واحد؛ بل عليهم جميعًا؛ لأنَّ حِفظ كتاب الله بمعانيه وما دلَّ عليه أَمْرٌ واجب على الأُمَّة، يجب عليهم.

فهذا هو (معرفة الدِّين).

فإذن على كلِّ فردٍ بما يخصُّه، الشَّيء الَّذي يجب عليه، يجب أنْ يعرفه.

وفسِّر بثلاثة أشياء؛ جعلها ثلاثة مراتب، وكلُّ مرتبةٍ أعلى مِن الَّتي قبلها:

- الإسلام؛ ويُفسَّر بخمسة أشياء.

- والإيمان؛ ويُفسَّر بستَّة أشياء.

- والإحسان؛ ويُفسَّر بشيئين.

فأوَّلها: الإسلام: وهو أعمُّ؛ أعمُّ مِن (الإيمان)، وأعمُّ مِن (الإحسان) [٧].

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

الأصل الثَّانِي:

مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ

وَهُوَ الاسْتِسْلَامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالخُلُوصُ مِنَ الشِّرْكِ.

وَهُوَ ثَلَاثُ مَراتِبَ: الإِسْلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ.

---

(٧) نهاية المجلس السادس.

وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

المرتبة الأولى: أَرْكَانُ الإِسْلَامِ: خَمْسَةٌ:

- شهادة ألَّا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- وإقام الصَّلاة.

- وإيتاء الزَّكاة.

- وصوم رمضان.

- وحج بيت الله الحرام.

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عِمْرَان].

وَمَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ وحده.

(لَا إِلَهَ): نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

(إِلَّا اللهُ): مُثْبِتًا العِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أَنَّهُ ليس له شَرِيكَ فِي مُلْكِهِ.

وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزُّخْرُف].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عِمْرَان].

وَدَلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التَّوْبَة].

وَمَعْنَى شَهَادَةِ (أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، وَاجْتِنَابُ مَا عَنْهُ نَهَى وَزَجَرَ، وَأَلَّا يُعْبَدَ اللهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ.

وَدَلِيلُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيِّنَة].

وَدَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾ [البَقَرَة].

وَدَلِيلُ الحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾ [آلِ عِمْرَان].

المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ:

وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، **فَأَعْلَاهَا**: قَوْلُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، **وَأَدْنَاهَا**: إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

وَأَرْكَانُهُ: سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البَقَرَة:١٧٧].

وَدَلِيلُ القَدَرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ۝٤٩﴾ [القَمَر].

المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الإِحْسَانُ:

رُكْنٌ وَاحِدٌ؛ وَهُوَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.

وَالدَّلِيلُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النَّحل].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ [الشُّعراء].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يُونُس:٦١].

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جبريل المَشْهُورُ، عَنْ عُمَرَ بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وقَالَ: (يَا مُحَمَّدُ؛ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلَامِ؟).

فَقَالَ: «**أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**».

قَالَ: (صَدَقْتَ)؛ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ: (أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ؟).

قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَبِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

قَالَ: (أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟).

قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

قَالَ: (أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟).

قَالَ: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**».

قَالَ: (أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟).

قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ**».

قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا.

فَقَالَ: «**يَا عُمَرُ؛ أَتَدْرُون مَنِ السَّائِلُ؟**».

قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «**هَذَا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ**».

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

مضى الأصل الأوَّل؛ وهو معرفة العبد ربَّه بالأدلَّة.

وهنا يقول: (**الأصل الثَّانِي**)؛ وهو (**مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ**).

وسبق أنَّه لا بدَّ مِن الأدلَّة؛ حتَّى يكون الإنسان مُوقنًا، سالمًا مِن الارتياب ومِن الشَّكِّ.

وإلَّا إذا لم يعرف الدِّين الإسلامي بأدلَّته مِن الكتاب والسُّنَّة – وليس مِن المنطق، ولا مِن العقول الَّتي يعتمد عليها المتكلِّمون وغيرهم ويسمُّونها (براهين)! مع أنَّها شكوك ليست براهين؛ وإنَّما البراهين: الَّتي جاءت بها الرُّسل؛ يعني يعرف الأدلَّة بالكتاب والسُّنَّة – ...

وهذا الَّذي يُسأل عنه الإنسان يوم القيامة؛ يُسأل عن ما جاء به الرَّسول: (هل أجابه؟ هل آمن به وقَبِله أو رَدَّه؟)؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف].

يقول العلماء: كلمتان يُسأل عنهما الأوَّلون والآخرون: (ماذا أجبتم المرسلين؟ وماذا كنتم تعبدون؟)؛ لا بدَّ مِن السُّؤال عن هاتين الكلمتين.

وكونه يعرف دين الإسلام بالأدلَّة يأمن:

– في الدُّنيا مِن الشَّكِّ والتَّشكيك – تشكيك المُشكِّكين – وتضليل المضلِّلين؛ كما يقع كثيرًا لعوام المسلمين؛ فإنَّهم يُخرَجون مِن الدِّين الإسلامي بالشُّكوك مِن النَّصارى وغيرهم الَّذين يُشكِّكونهم؛ لأنَّهم لم يعرفوا الدِّين الإسلامي بأدلَّته؛ وإنَّما أخذوه تقليدًا عن آبائهم وأهل بلادهم؛ فإذا طُلِب منهم البرهان على ذلك ما وجدوه، فيُشكَّكون في الدِّين، والشَّكُّ فيه يكون كفرًا.

– وكذلك في القيامة؛ فإنَّ الله يثبِّت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧].

والقيامة: أوَّلها: نزول القبر؛ عندما ينزل الإنسان القبر يأتيه مَلَكان مُوكَّلان بسؤال الميِّت؛ يُقال لأحدهما (مُنكر)، والآخر (نكير)، ويكون لهما منظر مُهيل، هائل، وصوت مزعج، وينهرانه انتهارًا؛ يقولان له: (مَن ربُّك؟ وما دينك؟ وما هذا الرَّجل الَّذي بُعِث فيكم؟).

فإنْ كان عارفًا للإسلام بالأدلَّة أجاب؛ قال: (ربِّي: الله، وديني: الإسلام، وهذا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله).

يقولان له: (وما يُدريك؟) يعني ما الدَّليل؟

فيقول: (قرأت كتاب الله وآمنت بما فيه) يعني أنَّه عارفٌ بذلك.

دلَّ هذا على أنَّ الدَّليل يكون مِن كتاب الله وممَّا جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس مِن العقل الَّذي يقوله المتكلِّمون.

لو كان مِن العقل لقال: (اهتديتُ بعقلي، ونظرت بنظري؛ فعلمتُ أنَّ الله هو الخالق لكذا، وأنَّه كذا وكذا)، ولكنَّه يقول في الجواب: (قرأتُ كتاب الله).

ومعنى (قرأته): آمنتُ به.

(القراءة) يُقصَد بها الإيمان والاتِّباع، ليس مجرَّد قراءة بدون إيمانٍ ولا عمل؛ فإنَّ هذه لا تُجدي ولا تنفع.

الدِّين الإسلامي هو توحيد؛ ولهذا قال: (وَهُوَ الاسْتِسْلَامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ).

و(**الاستسلام**) **معناه**: ألَّا ينازِع؛ بأنْ ينقاد مُذعِنًا خاضعًا لربِّه جَلَّ وَعَلَا، ليس عنده تأبِّي بأنْ يأبى ما أُمِر به، أو يرتكب ما نُهِي عنه؛ يستسلم.

ولهذا إذا كان الإنسان لا منازعة لديه قيل: (استسلم)، (استسلم للقتل، واستسلم للأَسْر) لأنَّه ليس عنده قوَّة ولا منازعة؛ بل منقاد مُذعِن ذال.

فـ(الإسلام): هو الاستسلام لله بالخضوع والذُّلِّ طائعًا منقادًا، راغبًا في ما وعده الله جَلَّ وَعَلَا في الطَّاعة، راهبًا خائفًا أنَّه إذا ارتكب المحظور الَّذي حَظَره الله عليه أنْ يُعذِّبه الله.

فهذا هو حقيقة الإسلام.

ثمَّ يأتي الفَرْق بين (الإسلام) و(الإيمان) كما سيأتي.

ثمَّ هذا مَبنيٌّ على أركانٍ خمسة؛ كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْس**».

و(**الرُّكن**): هو جانب الشَّيء الأقوى الَّذي يعتمد عليه؛ فلا بدَّ منه؛ بمعنى أنَّه إذا ذهب ركنٌ فكأنَّه ذهب كلُّه واختلَّ، وأصبح لا نَفْع فيه.

فلا بدَّ مِن الإتيان بهذه الأركان.

فمَن لم يأتِ بواحدٍ منها: فإنَّه يكون مختلَّ الإسلام، ليس مسلمًا على الوجه الشَّرعي.

وأوَّلها وأعظمها: شهادة ألَّا إله إلَّا الله.

ومعنى (الشَّهادة): العِلم اليقيني؛ بأنْ يعلم بقلبه وينطق بلسانه مُعلِمًا عمَّا في قلبه، وأنْ يعمل بمقتضى ذلك؛ يعمل بأركانه وجوارحه.

لأنَّ الله جَلَّوَعَلَا هو الإله المعبود، وأنَّ كلَّ مألوهٍ غيره باطلٌ، ولا حقيقة لتسميته (إله)؛ بل هو مِن صُنْع البشر وتزيين الشَّيطان واتِّباع الهوى، ومِن الحَدْس والظُّنون الَّتي لا تغني عن الحقِّ شيئًا؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج:٦٢]؛ كلُّ ما دُعِي مِن دون الله جَلَّوَعَلَا فهو باطل.

والله هو الحقُّ؛ تألُّهه حقٌّ، وعبادته هي الحقُّ الثَّابت الَّذي يكون ثبوته واستقراره نافعًا لمَّن تعلَّق به ومفيد.

وشهادة (ألَّا إله إلَّا الله) اشتُرِط لها شروط:

أوَّلها: العِلم؛ لقوله تَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦].

أمَّا أنْ يشهد بأنْ (لا إله إلَّا الله) وهو لا يعلم: فإنَّها لا تُجدي، لا تنفع.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]؛ وبدأ بـ (العِلم) قبل (العمل) الَّذي هو الاستغفار.

ومنها: الانقياد: أنْ ينقاد لمعناها ولِمَا دلَّت عليها.

ومنها: الصِّدق في قولها، والعمل، وإلَّا يكون منافقًا؛ إذا قالها ظاهرًا وهو في باطنه كاذب: فهو مِن المنافقين.

ومنها: المحبَّة؛ أنْ يحبَّ ما دلَّت عليه وما اقتضته، ويرتبط بذلك.

ومنها: اليقين؛ بأنْ يُوقِن بهذا ولا يكون عنده تردُّدٌ أو شَكٌّ.

فمَن جاء بالشُّروط بها وبشروطها: فهي الَّتي وُعِد عليها أنَّه يدخل الجنَّة مَن أتى بها.

أمَّا ما كان يقولها وهو يأتي بمُناقِضها: فإنَّها لا تنفعه، ويكون قولها كالهَذَيان الَّذي يهذي به السَّكران والمجنون، لا قيمة له.

مِثل الَّذين يقولونها وهُم يعبدون الأولياء ويطوفون بالقبور؛ فإنَّ هذه لغوٌ في حقِّهم؛ قول: (لا إله إلَّا الله) لغو لا فائدة فيها؛ لأنَّ المقصود: المعنى وليس اللَّفظ.

ولا يجوز لمَن يدَّعي الإسلام أنْ يكون الكفَّار أعلم منه بأصل الإسلام بـ(لا إله إلَّا الله)؛ فإنَّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا قال للكفَّار: «**قُولُوا: لَا إِلَه إِلَّا الله**» قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥]؟! عَلِموا أنَّ قولها يُبطِل كلَّ تألُّهٍ لغير الله جَلَّ وَعَلَا.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥]: فأبوا، نفروا.

ولمَّا حضرت الوفاة عمَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أبا طالب) - الَّذي كان يحميه، ويحوطه، ويناصره على المشركين - جاء إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**يَا عَم؛ قُلْ: (لَا إِلَه إِلَّا الله) كَلِمَةً أُحَاجُّ بِهَا لَكَ عِنْدَ الله**».

فقال الحاضرون مِن رفقاء السُّوء، مِن جلساء الشَّرِّ (أبو جهل عبد الله بن عُتبة) ومَن معه؛ قالوا له: (أترغب عن ملَّة عبد المطَّلب؟)!

كيف فَهم الكفَّار هذا؟ كيف فهموا أنَّ المقصود مِن قول: (لا إله إلَّا الله): الخروج مِن ملَّة الكفر والدُّخول في ملَّة الإسلام، وليس مجرَّد قولها؟

فأعاد عليه الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعادوا عليه هذه المقالة: (أترغب عن ملَّة عبد المطَّلب؟!).

فأبى أنْ يقولها ومات على ملَّة عبد المطَّلب؛ الَّذي هو الشِّرك بالله جَلَّ وَعَلَا - أعوذ بالله مِن ذلك -.

والمقصود: أنَّ الكفَّار يفهمون، يعلمون أنَّ قول: (لا إله إلَّا الله) يجعل قائلها معتنقًا ملَّةً غير ملَّتهم، دينًا آخر غير دينهم.

فلا يجوز للمسلم أنْ يكون المشركون أفهم وأعلم منه بمعنى (لا إله إلَّا الله).

نقول هذا لأنَّ كثيرًا ممَّن يدَّعي أنَّه مسلم يقول: (لا إله إلَّا الله) وهو يستنجد بالمقبورين! يستغيث بهم، يطلب منهم تفريج الكربات، وإجابة الدَّعوات! يطلب منهم النَّفع في الدُّنيا والآخرة!

وهذا لا يجوز أنْ يُطلَب إلَّا مِن ربِّ العالمين، الإله الَّذي هو الإله الحق.

وكلُّ مَن طَلَب شيئًا مِن المطالب الَّتي لا يقدر عليها: فهو قد اتَّخذه إلهًا.

الميِّت لا يستطيع أنْ يُكلِّمك، لا يستطيع أنْ يسقيك مِن الماء، لا يستطيع أنْ ينفع نفسه بحسنةٍ صغيرة فكيف يُدعَى؟!

زعموا أنَّه يكون وساطة لهم عند الله يشفع لهم، أو هو بدَوْره يطلب مِن الله فيعطيهم كذا وكذا! وهذا هو زَعْم المشركين، هو شِرْك المشركين تمامًا!

والمقصود: أنَّ الرُّكن الأوَّل: (شهادة ألَّا إله إلَّا الله).

(وَمَعْنَاهَا) كما قال: (لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ)؛ وذلك أنَّ المعبودات كثيرة ولكنَّها بباطل وليست بحقٍّ.

فـ(لا إله إلَّا الله) تُبطِل جميع العبادات الَّتي تكون لغير الله جَلَّوَعَلَا مِن الخَلْق، وتجعلها محصورةً في إلهٍ واحد (هو الله).

فقولك: (لا إله): نَفْي مُطلَق.

و(الإله): اسم جنس؛ مثل (رجل)، مثل (بقرة)، مثل (شجرة).

فإذا قلت: (لا رجلَ) معنى ذلك أنَّ هذا نَفْيٌ لجنس الرِّجال، ليس موجودًا.

(لا رجلَ في البيت إلَّا فلان) فقط، يكون رجلًا واحدًا.

فقول: (لا إله) معناه: إبطالٌ لكلِّ معبودٍ يُتألَّه لباطل مِن دون الله.

وقولك: (إلَّا الله): إثبات الإلهيَّة لله جَلَّوَعَلَا.

ولهذا؛ هذه الكلمة لها ركنان: النَّفي، والإثبات؛ لا بدَّ أنْ تنفي جميع المعبودات، وتثبتها لله.

ومِن هنا قال الشَّيخ: (والبراءة مِن الشِّرك وأهله): يعني بهذا النَّفي والإثبات يدلُّ على أنَّ الإنسان لا بدَّ أنْ يكون بريئًا خالصًا مِن الشِّرك ومِن أهل الشِّرك؛ لا يواليهم، ولا يحبُّهم، ولا يُساكنهم؛ بل يُزايلهم ويبغضهم ويعاديهم، وإلَّا لا يكون إسلامه صحيحًا، لا يأتي بالإسلام الصَّحيح.

فالَّذي يتألَّه لربِّه جَلَّوَعَلَا (ربِّ العالمين) لا بدَّ أنْ يتميَّز بهذا عن المشركين.

والتَّميُّز يكون بالعمل، ويكون بالمكان، ويكون بالتَّوجُّه، وبالعِلم الَّذي يكون في القلب.

أمَّا مجرَّد قول مع ما ينافي هذا القول مِن الأفعال الَّتي يأتي بها: فهذا لا يُجزي شيئًا.

ولهذا تعيَّن على المسلم أنْ يُزايل المشرك؛ يزايله في المكان ويبتعد عنه.

ممَّا كان يوم بدر: كان في مكَّة بعض المسلمين المستضعفين الَّذين لم يهاجروا، فأُخرِجوا مع الكفَّار لقتال المسلمين، خرجوا، أخرجوهم، ذهبوا بهم معهم، فصاروا معهم، .. الوقعة إذا المؤمنون قد قتلوا بعضهم، وقالوا: (قتلنا إخواننا!!) فأنزل الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾ [النساء: ٩٧].

فلا بدَّ مِن أنْ يزايل الكافر ويعاديه.

ولهذا جعل ذلك مِن أركان الإسلام؛ مِن أركان الإسلام: أنْ يتبرَّأ مِن المشركين ومِن دينهم.

مِن تمام هذا الرُّكن: شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله، وليست ركنًا آخرًا؛ بل هي مع (شهادة ألَّا إله إلَّا الله) ركنٌ واحد.

وذلك أنَّ الإنسان لو شهد ألَّا إله إلَّا الله حقًّا ولم يعبد إلَّا الله، ولكنَّه لم يشهد للرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرِّسالة: فهو كافرٌ مِن أهل النَّار، ولا تنفعه شهادته ولا عبادته؛ لا بدَّ أنْ يشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

و(الشَّهادة) كما قلنا: هي العِلم، **وفي ضمنها**: الإخبار، النُّطق، والإعلام، **وفي ضمنها**: العمل والإلزام؛ أنْ يلزم نفسه بذلك.

فـ (الشَّهادة) إذن تتضمَّن أمورًا أربعة:

- **أنْ** يعلم الإنسان بما شهد؛ كما جاء في الحديث لمَّا يقول: «على مِثلها فاشهد».. الشَّمس، وإلَّا فلا؛ لا بدَّ مِن اليقين فيها.

- **الثَّاني**: أنْ يتكلَّم بها وينطق بها، ويُعلِم غيره أنَّه يشهد ألَّا إله إلَّا الله.

هذا يكون في نفسه وخارجًا.

- **الثَّالث**: العمل على ذلك؛ أنْ يعمل بما شهد به، ويأتي بمضمونه.

- **الرَّابع**: أنْ يلتزم ويُلزِم مَن يستطيعه لذلك؛ يحكم بهذا ويلتزمه.

فلا بدَّ لـ (الشَّهادة) مِن هذه الأمور.

واستدلَّ على شهادة ألَّا إله إلَّا الله بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عِمْرَان]).

(﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨]): فالله جَلَّوَعَلَا شَهِد لنفسه؛ وهذه أعظم شهادة مِن أعظم شاهد في أعظم مشهودٍ؛ الَّذي هو التَّألُّه لله جَلَّوَعَلَا.

ثمَّ ذَكر (الملائكة) أنَّهم شهدوا بهذا، والملائكة أهل عِلم وعبادة ويقين؛ ولهذا قرن شهادتهم مع شهادته.

ثمَّ (أولو العلم) مِن بني آدم، أولو العلم فقط.

(﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٨]): وهذا مِن أعظم ما يُستدلُّ به على فضل العِلم؛ حيث جَعَل أهل العلم شهداء على أحقِّيَّته جَلَّوَعَلَا، وعلى أنَّه الإلهُ الحقُّ، قَرَنهم مع الملائكة بهذا الحظ.

و(العلم): المقصود به (العلم الشَّرعي)؛ الَّذي جاء به الرَّسول.

أمَّا (عِلم الحساب، والهندسة، والصَّيدلة، والطِّب) وما أشبه ذلك: فهذه لا تدخل في العِلم الشَّرعي؛ فليست هذه ممَّا يدعو إلى شهادة ألَّا إله إلَّا الله؛ وإنَّما العلم الموروث عن الرُّسل؛ الَّذي ينتفع به العالِم، ويرتقي به إلى اليقين وعبادة الله جَلَّوَعَلَا.

وكذلك آياتٌ كثيرة؛ كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ﴾ [الحشر:٢٢].

آياتٌ لا تُحصَى؛ كلُّها تدلُّ على هذا الأصل العظيم؛ بل هي ناطقةٌ بذلك، ومُلزمةٌ للخَلْق به، ولكنَّ

أكثر الخَلْق لم يلتزموا.

وأمَّا (شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): فقد فسَّرها بأنَّها طاعته فيما جاء به، واتِّباعه عليه، وألَّا يعبد الله جَلَّ وَعَلَا إلَّا بالشَّرع الَّذي جاء به.

هذه حقيقة شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله؛ طاعة أَمْره، والانتهاء عن ما نهى عنه، وأنْ يُعبَد الله بالشَّرع الَّذي جاء به صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ؛ لا بالبدع، ولا بالآراء والأهواء.

فمَن فَعَل ذلك فقد شَهِد أنَّ محمَّدًا رسول الله.

فكونه – مثلًا – يقول: (أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله) وهو يخالفه ويعصيه: هذا ما ينفع.

وكونه يقول: (أشهد أنَّ محمَّدًا رسول الله) وهو يتعبَّد بغير شرعه: هذا ما ينفع ولا يجدي؛ كأنَّه لم يشهد.

ثمَّ هذه الشَّهادة مع (شهادة ألَّا إله إلَّا الله): لا بدَّ منهما مجتمعتين، لا ينفصل واحدة عن الأخرى؛ ولهذا عُدَّتا ركنًا واحدًا مِن أركان الإسلام.

وهو الرُّكن الأعظم؛ الَّذي ينبني عليه غيرُه.

واستدلَّ على أنَّ محمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول الله بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التَّوْبَة].

(﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨]): يعني مِن جنسكم، تعرفونه، وتستطيعون أنْ تأخذوا عنه، وتفهموا كلامه، وتخاطبوه ويخاطبكم، وليس مَلَكًا مِن الملائكة لا تستطيعون خطابه؛ فهذا مِن مِنَّة الله جَلَّ وَعَلَا.

وقوله: (﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨]) يعني مِن جنسكم، مِن ذكر وأنثى، بشر مثلكم.

معلومٌ أنَّه لو كان مِن غير الجنس (جن أو ملائكة) ما استطاع النَّاس أنْ يأخذوا عنه، إلَّا أنْ يُجعَل بشرًا.

كما اقترح الكُفَّار؛ اقترحوا على الله جَلَّ وَعَلَا أنْ يكون ملكًا فقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام]؛ يعني أنَّهم لا يستطيعون أنْ يأخذوا عن

المَلَك؛ لا بدَّ أنْ يكون بصورة البشر؛ ينطق ويتكلَّم بصورة البشر.

وهنا يلتبس عليهم الأمر ويقولون: (هذا ليس ملكًا؛ هذا بشر).

فترجع القضيَّة كما زعموا.

فكونه (مِن أنفسنا): مِن مِنَّة الله علينا؛ ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وكذلك الأُمِّيين؛ لأنَّه منهم.

فقوله: (﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨]): جاء في قراءة: (﴿مِّنْ أَنْفَسِكُم﴾ [التَّوْبَة ١٢٨]) يعني مِن أشرفكم وأعظمكم.

وقوله: (﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨]): يعني حريصٌ على إيمانكم وهدايتكم.

(﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨]): يعني أنَّه يشقُّ عليه الشَّيء الَّذي يُعنِتكم ويكون فيه عذابكم؛ يشقُّ عليه.

وقوله: (﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التَّوْبَة: ١٢٨]): يعني أنَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الصِّفة للمؤمنين؛ رؤوفٌ بهم، يرحمهم؛ وهذا مِن فضل الله جَلَّ وَعَلَا على المؤمنين.

وكذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل].

آياتٌ كثيرة في شهادة أنَّ محمَّدًا رسول الله، كثيرة جدًّا.

فهذا أصلٌ لا بدَّ مِن معرفته بالدَّليل: (شهادة ألَّا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله)، لكلِّ أحد، ولا يجوز أنْ يكون مُقلِّدًا فيه.

إذا قيل له: (ما معنى الإله؟ ومَن هو الإله الحقّ؟) يجب أنْ يعلم ويأتي بالدَّليل.

(مَن الَّذي جاء بهذا؟ مَن هو): لا بدَّ أنْ يعرف أنَّه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولهذا؛ يُسأل عن ذلك كلُّ ميِّت، كلُّ ميِّت يُسأل إنْ أجاب، وإلَّا عُذِّب، إنْ لم يُجِب الجواب الصَّحيح وإلَّا عُذِّب.

وقوله: (وَهُوَ ثَلَاثُ مَراتِبَ): يعني الدِّين.

و(**الدِّين**): هو ما يُدان به، هو المُتعبَّد به، يُتعبَّد به؛ لأنَّه سيُسأل عنه ويُجزَى على ذلك؛ إنْ كان قد اتَّبع الحقَّ على وفق ما جاء به الرَّسول جُزِي أفضل الجزاء، وإلَّا عُذِّب.

ولهذا؛ يُقال: (دَيَّان يوم الدِّين): يعني الَّذي يجازي العِباد، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ [الانفطار]؛ هو الَّذي يحكم بين خَلْقه.

(وَهُوَ ثَلَاثُ مَراتِبَ: الإِسْلَامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ).

الأدلَّة الَّتي ذكرها واضحة، في دليل (شهادة ألَّا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسول الله).

ثمَّ (دَلِيلُ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ): (قولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البيِّنة]).

(﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ [البيِّنة: ٥]): مَن هُم؟.. أهل الكتاب الَّذين قبلنا والأُمم كلُّها؛ لأنَّ أوَّل السُّورة: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة] إلى أنْ قال: (﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة: ٥]): يعني الدِّين الَّذي يدينون به يجب أنْ يُخلَص، أنْ يكون خالصًا لله ولا يكون فيه شِرك، ما يكون فيه إيراداتٌ ونيَّاتٌ لغير الله جَلَّ وَعَلَا – مِن أمور الدُّنيا وغيرها –.

والدِّين الإسلامي: إنْ لم يكن المتديِّن مخلصًا، وإلَّا فهو فاسد مردودٌ عليه؛ لأنَّ الشِّرك إذا دَخَل في العمل أفسده؛ مثل النَّجاسة إذا خالطت الماء فإنَّه يصبح نجسًا فاسدًا، لا يصلح التَّطهُّر به.

فكذلك العبادة كلُّها، كلُّ العبادات إذا دَخَلها شِرك صارت نَجِسة قَذِرة مُنتنة، يردُّها الله جَلَّ وَعَلَا ولا يقبلها؛ «**فَإِنَّ اللهَ طَيِّبٌ، لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**»، وهو أغنى الشُّركاء عن الشِّرك؛ فمَن عمل عملًا جَعَل فيه لله شريكًا فإنَّه يتركه وشِرْكه.

و(إقامة الصَّلاة): (﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البيِّنة: ٥]): **إقامتها**: أنْ يأتي بها على الوجه الشَّرعي؛ بشروطها،

وأركانها، وواجباتها؛ **ومِن ذلك**: حضور القلب وخشوعه، وأنَّه قائمٌ بين يدي الله.

فـ(إقامتها): هي أنْ يأتي بها على الوجه الشَّرعي.

أمَّا مجرَّد صلاة: فقد تكون صلاةً ولكن ليست مُقامَة، صلاةٌ بلا إقامة، ما أُقيمت؛ لأنَّ (الإقامة): هي التَّمام؛ أنْ يأتي بها تامَّةً.

وأمَّا مجرَّد صلَّى: فإنَّه قد يُصلِّي ولا صلاة له؛ كما قال الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأعرابي الَّذي دخل المسجد وصار ينقر صلاته، فلمَّا انتهى جاء وسلَّم على النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال له: «**ارْجِعْ فَصَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**» وإنْ كان يرى أنَّه صلَّى.

فإذن (إقامة الصَّلاة): أنْ يأتي بها على الوجه ...، وتكون تامَّة الشُّروط والأركان والواجبات.

أمَّا المستحبَّات: فإذا تَركها فإنَّه لا يأثم، ولكنَّه يترك الفضل.

وكذلك (الزَّكاة)؛ الزَّكاة: هي تطهير المال وتنميته؛ فهي طُهرة للمال وتزيد فيه وتُنمِّيه، وهي كذلك تُطهِّر عمل الإنسان وتُزكِّيه.

وهي جزءٌ قليل مِن المال؛ فزكاة الأموال تختلف - كما هو معلوم - ولكنَّها قليلة.

وأداؤها: أنْ يضعها في الموضع الَّذي أَمَره الله جَلَّ وَعَلَا أنْ يضعها فيه؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [التوبة:٦٠]؛ يعني ثمانية؛ هؤلاء الثَّمانية هُم الَّذين تُوضَع فيهم الزَّكاة.

ولا يجوز بناء المدارس فيها، ولا بناء المساجد، ولا شَقُّ الطُّرُق، وإخراج المياه وتسبيلها.

فإنَّ الزَّكاة لا بدَّ أنْ توضع في المكان الَّذي حدَّده الله جَلَّ وَعَلَا في هذه الآية.

ولكن لو مثلًا دفعها إلى الإمام برئت ذِمَّته، ولا ينظر أين يضعها؛ فإنَّها تتعلَّق به، انتهت.

فـ(أداء الزَّكاة) رُكنٌ مِن أركان الإسلام، لا بدَّ منه؛ فمَن لم يأتِ به فإسلامه غير صحيح.

وكذلك (الصوم): صوم رمضان.

وذكر الدَّليل: (﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾

[البَقَرَة: ١٨٣]).

ومعنى (﴿كُتِبَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٣]): يعني أُوجِب عليكم وأُلزِمتموه، أوجبه الله عليكم.

و(صيام شهر رمضان): وهو معروفٌ، حتَّى في الجاهليَّة عند الكفَّار؛ فقد جاء الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قريش وهُم يصومون يوم عاشوراء، كانوا يصومونه، وكذلك غيرهم.

فـ(**الصِّيام**): إمساكٌ عن الأكل والشُّرب والجِماع وسائر المفطِّرات مِن الغيبة والنَّميمة وما أشبه ذلك؛ مِن طلوع الفجر إلى غروب الشَّمس.

ولا بدَّ مِن النِّيَّة في ذلك؛ فلو أمسك بلا نِيَّة فلا يكون صيامًا؛ كما هو معلوم.

والرُّكن الخامس: حجُّ بيت الله الحرام لمَن استطاع إليه سبيلًا.

و(تَرْك الحَجِّ) كُفْرٌ؛ كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]: يعني مَن تَرَك الحَج فلم يحجَّ فقد كفر، والله غنيٌّ عنه.

وهذه الأركان لا بدَّ منها – كما قلنا –، وإلَّا يكون الإسلام غير صحيح.

ثمَّ (**المَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ**): وهي (**الإِيمَانُ**).

(الإيمان) فسَّره الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِه، وَرُسُلِهِ، وَبِاليَوْمِ الآخِرِ، وَبِالقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّه**».

إذن هذه ستَّة أركان.

(الإيمان) له أركانٌ ستَّة.

و(الإسلام) له أركانٌ خمسة.

والفَرْق بين (الإسلام) و(الإيمان):

أنَّ (الإيمان) أعمُّ مِن جهة نفسه، و**(الإسلام)** أخصُّ مِن جهة نفسه.

وأمَّا مِن جهة أهله: فـ(الإيمان) أخصُّ مِن **(الإسلام)**.

يعني أنَّ الإنسان قد يكون مسلمًا ولا يكون مؤمنًا، أمَّا إذا كان مؤمنًا فلا بدَّ أنْ يكون مسلمًا.

و(الإيمان) مأخوذٌ مِن (الأمن)؛ وذلك أنَّه يكون أمرًا باطنيًّا، في باطن الإنسان وداخله، يؤمِن ويؤتمَن على ذلك.

أمَّا (الإسلام): فهو يكون خارجيًّا - الأعمال الظَّاهرة الَّتي تُشاهَد، والأقوال الَّتي تُسمَع -، ولكن لا بدَّ فيه مِن إيمانٍ يُصحِّح الإسلام.

وهذا (الإيمان) الَّذي يكون فيه:

- قد يصل إلى درجة الإيمان الكامل.

- وقد يكون إيمانًا ناقصًا؛ لا يمنع مِن العذاب.

فمعنى ذلك: أنَّ دائرة (الإسلام) أوسع؛ مِن ناحية نفسه.

ودائرة (الإيمان) أقل مِن دائرة (الإسلام)؛ مِن ناحية نفسه.

أمَّا مِن ناحية أهله: فبالعكس؛ المؤمن يكون مسلمًا، والمسلم قد لا يكون مؤمنًا.

وإذا قيل: (مؤمن) دَخَل فيه (الإسلام)، أمَّا إذا قيل: (مسلم): فلا؛ لا يلزم أنْ يدخل فيه (الإسلام).

ولهذا؛ لمَّا كان الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوزِّع مالًا على بعض المسلمين، وسعد بن أبي وقَّاص ينظر؛ فأعطى بعضهم وترك واحدًا، ويقول سعد: (كان ذلك أعجب القوم إليَّ) فقلت: (يا رسول الله؛ مالك عن فلان؟! والله إنِّي لأَراه مؤمنًا) فقال: «**أَو مُسْلِم**» فأعادها ثلاثًا، والرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أَو مُسْلِم**»؛ ثمَّ بيَّن له أنَّ (الإيمان) غير (الإسلام).

وأخبره أنَّه يعطي أُناسًا يخشى عليهم أنْ يزول إسلامهم، ويترك الَّذي يكون الدِّين عنده أمكن، والرَّغبة فيه أكثر، يَكِله إلى رغبته.

فالمقصود: أنَّ (الإسلام) يُفسَّر بالأعمال الظَّاهرة والاستسلام لذلك، و(الإيمان) يُفسَّر بالأعمال الباطنة؛ هذا إذا اجتمعا.

وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات:١٤]: يعني إلى الآن لم تصلوا إلى درجة الإيمان، ولكنَّكم أسلمتم (يعني انقدتم انقيادًا ظاهرًا)، أمَّا الإيمان الَّذي فيه الأمن ويأمن الإنسان عن عذاب الله - يعني في الجملة -، ويُؤمَن على

المُحرَّمات وعلى أداء الواجبات: فإنَّ هذا يكون قليلًا.

ولهذا؛ يصبح (انتهاك الإنسان للمعاصي) نقصًا في إيمانه، وقد يزول؛ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِن، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِن، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُم وَهُوَ مُؤْمِن**»؛ فنفى عنه الإيمان في هذه المواطن، ومعلوم أنَّه مسلم، ليس كافرًا بل هو مسلم.

فدلَّ هذا على أنَّ (الإيمان) غير (الإسلام).

وهذا صريح في الحديث الَّذي ذكره المصنِّف.

وكذلك في القرآن؛ يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [الأنفال]؛ فذكر هذه الأمور، وإذا ذَكَر ربَّه وَجِل قلبه، وأنَّه إذا تُلِيت عليه الآيات زادته إيمانًا، ولا بدَّ أنْ يزداد بذلك عملًا.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال:٢]: ومعنى ذلك أنَّه ينفي (الإيمان) عن مَن عدا هؤلاء، ولا يُنفَى (الإسلام) عنهم.

فـ(الإيمان) إذن يكون واسعًا مِن جهة أعماله؛ ولهذا قال: (وَهُوَ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً).

(**أَدْنَاهَا**: إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ):

إماطة الأذى - إزالة الشَّيء الَّذي يؤذي المسلمين عن طريقهم - يكون مِن الإيمان؛ لأنَّه يدعوه ذلك إلى أنْ يكون مُحبًّا للمؤمنين، خائفًا أنْ يضرَّهم شيء، مزيلًا له، عاملًا على إزالة ما يضرُّهم ويؤذيهم؛ فيكون الحامل له على ذلك (الإيمان).

وليس نفس (إماطة الأذى): هو الإيمان؛ وإنَّما الَّذي يدفعه إليه.

(**أَعْلَاهَا**: قَوْلُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)).

وسبق أنَّ (لا إله إلَّا الله) رُكنٌ مِن أركان الإسلام، فكيف تكون إذن أعلى مراتب الإيمان؟

- لأنَّها إذا تكلَّم بها المتكلِّم إمَّا أنْ يكون موقنًا صادقًا عاملًا؛ فتكون صادرةً مِن مؤمن حقًّا.

- وقد يتخلَّف شيءٌ مِن ذلك؛ فتكون مِن مسلم فقط.

وهي أفضل الذِّكر.

إذن نفهم مِن هذا: أنَّ (الإيمان) يختلف مع (الإسلام) عندما يقترن معه، إذا قَرَن (الإيمان والإسلام) فيكون (الإيمان) مُفسَّرًا بغير ما يُفسَّر به (الإسلام).

أمَّا إذا جاء مثل قول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]: فمعنى ذلك: أنَّ هذا الدِّين كلُّه؛ فيه (الإيمان والإحسان).

يعني إذا أُفرِد واحدًا ممَّا ذُكِر دَخَل فيه الآخر.

أمَّا إذا اجتمعا: فيُفسَّر (الإسلام) بالأمور الظَّاهرة (الأركان الخمسة)، ويُفسَّر (الإيمان) بالأمور الباطنة (الأركان السِّتَّة)؛ **ومِن ذلك**: البِرُّ، والتَّقوى، وما أشبه ذلك؛ كما قال الله جَلَّوَعَلَا: (﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٧٧]) إلى آخر الآية.

فهذا مِثل كلمة (الإيمان).

وذكر تفسير شهادة (ألَّا إله إلَّا الله): بأنَّها جاءت مُفسَّرة في القرآن بقول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيه وقومه: (﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزُّخْرُف]): يقول: هذا تفسير شهادة (ألَّا إله إلَّا الله)، يعني أنَّه تبرَّأ مِن الكفر ومِن أهله.

مِن الكفر: الكفر: الشِّرك، عبادة الأصنام.

(﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزُّخْرُف: ٢٦]).

وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الممتحنة:٤].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤].

ثمَّ استثنى مِن التَّأسي به: قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة:٤]: يعني هذا لا تتأسَّوا به؛ لأنَّ هذا – كما أخبر جَلَّوَعَلَا – أنَّه وقع عن وَعْدٍ وعده إيَّاه، ثمَّ بعد ذلك تبرَّأ منه.

والله أعلم.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمَّد [٨].

(٨) نهاية المجلس السابع.